القيم الجمالية لدى بعض مفكري الإسلام

(أبو حيان التوحيدي وابن الدباغ نموذجًا)

(دراسة تحليلية تأصيلية)

إعداد

د/ إيمان عبد المؤمن محمد سعد الدين

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

بالإسكندرية - جامعة الأزهر

ملخص بحث

يهدف البحث إلى : تناول قيمة من القيم الإنسانية والفلسفية ألا وهى " الجمال " أو الإبداع الفنى والتذوق الجمالى . والبحث يسعى إلى تأصيل فلسفة الجمال عند العرب المسلمين من مظانها الأصيلة ، بعيداً عن التأثيرات الفكرية الأجنبية. فالدراسة تكشف عن مادة ثرية وأسس جمالية متميزة قائمة بذاتها ومستمدة من خصائص المجتمع العربى الإسلامى ، ولذا وجد عبر التاريخ الإسلامى مفكرون وفلاسفة ومتصوفة كانت لهم نظراتهم الجمالية والفنية ، وقد اقتصرالتناول فى البحث على نموذجين من تلك النماذج ، وخاصة من الصوفية حيث قد أولوه عناية فائقة فقد تساموا عن الجمال الحسي إلى الجمال الروحاني ، وتعالوا بحواسهم إلى عالم إلهى نورانى مقدس تتمثل فيه كل القيم الفاضلة والأبدية الخالدة عن طريق التجلى والفيض.

وهدف البحث أيضاً إلى: إلقاء الضوء على هذين العلمين (التوحيدى وابن الدباغ) وذلك لقلة ما عرف عنهما ، برغم عظم ما قدماه للفكر الإسلامى من إسهامات ولاسيما فى مجال الإبداع الفنى والتذوق الجمالى ، والدمج بين الفلسفة والأدب والشعر والتصوف .

منهج البحث:

اعتمد البحث على المنهج التحليلى الاستنباطى ودراسة وتحليل النصوص والأفكار واستنباط المعلومات من النصوص ، كما اعتمد البحث كذلك على المنهج الاستدلالى بالتأصيل والبرهنة على كل ما يطرح بالبحث من أفكار ونظريات من مصادرها الأصلية.

وقد تناولت الباحثة الدراسة بالتركيز على الجوانب الآتية:

ـ مقدمة : واحتوت على أهمية الموضوع وأسباب الاختيار ومنهج البحث والدراسات السابقة وخطة البحث.

ـ **الفصل الأول** : علم الجمال : نشأته وتطوره ، والتعريف بمصطلحات البحث.

ـ **الفصل الثانى** : القيم الجمالية في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

واحتوى على مبحثين :

المبحث الأول : التأصيل الإسلامي لفلسفة الجمال في ضوء القرآن والسنة .

المبحث الثانى : ثم الترجمة لشخصية البحث (التوحيدى)

ـ **الفصل الثالث** : القيم الجمالية فى فكر كل من أبى حيان التوحيدى وابن الدباغ واحتوى على مبحثين :

المبحث الأول / الظاهرة الجمالية فى كتابات أبى حيان التوحيدى .

المبحث الثانى / الظاهرة الجمالية فى كتابات ابن الدباغ .

ثم الخاتمة و الفهارس .

وقد انتهى البحث إلى عدد من النتائج من أهمها :

١ـ أصالة الفكر الجمالي فى الإسلام ، والاعتناء بالجمال الحسي والمعنوي معاً.

٢ـ كان لأعلام التصوف خاصة الجهد الكبير والواضح فى كتبهم بتربية السلوك وتهذيب النفس

والترقية بها إلى أعلى المراتب، وكذلك الإبداع الجمالي والذوقي النابع من معتقدهم الدينى الإسلامى .

٣ _ـ لم يكن غرض المعنيين بالجمال من المسلمين التقعيد والتنظير لعلم الجمال كما هو معروف في العصر الحديث باسم (الاستاطيقا)، وانما جاءت رؤاهم الجمالية نتيجة نظرة عامة الى الكون ، معتمدة على الحدس والخيال الباطني والإشراق 'مرتكزة على أساسيات علم الجمال الذاتية والموضوعية عن تجربة روحية صادقة تؤكد أن ما وجد في الكون من جمال إنما هو من فيض الجمال الإلهي المقدس.

إعداد

دكتورة إيمان عبد المؤمن محمد سعد الدين

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات –

جامعة الأزهر – الاسكندرية

The aesthetic values of some Islamic thinkers
(Abu Hayyan al-Tawhidi and Ibn al-Dabbagh as model)
Structural analysis study

The research aims to deal with a value of human and philosophical values, namely "beauty" or artistic creativity and aesthetic taste. And seeks to consolidate the philosophy of beauty among the Muslim Arabs from their original appearance, away from foreign intellectual influences. The research also reveals rich material and aesthetic foundations distinct from themselves and derived from the characteristics of the Arab-Islamic society, and therefore found throughout Islamic history thinkers, philosophers and mystics who had their aesthetic and artistic views. This research was limited to two models, especially Sufism, where they gave great care. They were transformed from sensual beauty to spiritual beauty, and moved with their senses to a divine, divine world in which all eternal and eternal values are represented by rolling and flooding.

The research also aims to highlight on these two thinkers (Tawhidi and Ibn al-Dabbagh), for the little known of them, despite the many contributions they made to Islamic thought, especially in the field of artistic creativity and aesthetic taste, and the integration of philosophy, literature, poetry and mysticism.

Research Methodology:

The research was based on the analytic method of deductive analysis and analysis of texts and ideas and the extraction of information from the texts. The research also relied on the explanatory method by rooting and demonstrating all the ideas and theories presented by the original sources.

The researcher dealt with the study focusing on the following aspects:

Introduction: It included the importance of the subject, the reasons for the selection, the research methodology, the previous studies and the research plan.

Chapter I: Aesthetics: its origin and development, and the definition of research terms.

Chapter Two: The aesthetic values in the Holy Quran and the Sunnah.

It contains two sections:

The first section: Islamic rooting of the philosophy of beauty in the light of Quran and Sunnah.

The second section: Translation of the personality of research (monotheism)

Chapter three: The aesthetic values in the thought of Abi Hayyan Al-Tawhidi and Ibn al-Dabbagh and contained two topics:

The first section: aesthetic phenomenon in the writings of Abi Hayyan Tawhidi.

The second section: aesthetic phenomenon in the writings of Ibn Dabbagh.

Then the conclusion and indexes.

The research ended with a number of results:

1- Authenticity of aesthetic thought in Islam, and care for the beauty of both sensory and moral.

2- The mystical media especially the great effort and clear in their books to raise the behavior and self-improvement and promotion to the highest rank, as well as aesthetic creativity and taste stemming from their Islamic religious belief.

3- It was not the purpose of those who are concerned with aesthetics, as they are known in the modern era, as aesthetics. Their aesthetic vision came from the general view of the universe, based on intuition, inner imagination, and radiance confirms that what is found in the universe of beauty is a flood of divine beauty.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحابته أجمعين.

وبعد....

فيعتبر موضوع القِيَم من الموضوعات ذات الأهمية الكبيرة بالنسبة للحياة الإنسانية، والتي تحظى باهتمام المتخصصين في شتى العلوم الإنسانية، مثل: علم النفس، وعلم الاجتماع، والتربية، والأدب، والدراسات الأخلاقية. ولقد جاءت المعالجة الفلسفية له ضمن: فلسفة الأخلاق، وفلسفة الجمال، وفلسفة السياسة.....وغيرها.

والقيم –كذلك- من دوافع السلوك المهمة، وهي بمثابة معايير لسلوك أفراد المجتمع، والخروج عليها يجعل الفرد في موقف الاستجهان.

والمجتمع الإسلامي –في وقتنا الراهن- بحاجة ماسَّة إلى بلورة قيمه الإسلامية الخاصة به؛ لمواجهة التيارات الغربية المتصارعة، البعيدة –في معظمها- عمَّا أنزل الله "تعالى" في كتابه، وعمَّا أرسل به رسوله محمدا "ﷺ".(١)

ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق التربية التي تقوم بالمجهود العلمي الذي يهدف إلى ترجمة قيم المجتمع إلى: عادات، واتجاهات، ومهارات سلوكية.

و"الجمال" يندرج ضمن فلسفة القِيَم؛ ذلك لأن الفرد يستوعب الجمال ويحس به من خلال معاييره الاجتماعية، فالجمال قيمة –لو سلمنا ذلك- لكنها لست قيمة مُلزمة، فمن يتذوق القبة الزرقاء (السماء) ويدرك ما فيها من جمال؛ لا يجب عليه أن يقلدها، ومن ينظر إلى اللوحة الفنية فيستحسنها؛ لا يجب عليه أن يحاكيها؛ ذلك أن الحق والخير يتكونان من خلال العقيدة، أما الجمال فإن قيمته تنمو وتترعرع من خلال الحس السليم، والذوق المستقيم.

حيث إن القيم صنفها الفلاسفة إلى ثلاثة: الحق، الخير، الجمال؛ إذ تتبلور القيم من خلال التصور الاعتقادي لهذه القيم. فالإنسان خاشعًا في اعتقاده بتقوى وورع من خلال عقل يستقرئ الحق، وحُرًّا في اختياره باستقامة خلقية من خلال إرادة تستقطب الخير،

---

(١) محمد عزيز نظمي سالم: القيم الجمالية، د. ط: دار المعارف-القاهرة، ص: ٣٥.

ورائعًا في إبداعه بروعة جمالية من خلال حس يستقطر الجمال.[٢]

والقيم الإنسانية هي القواعد المؤسسة للمنظومة الأخلاقية المتكاملة، والتي تعارفت عليها الفطر الإنسانية السليمة، والتي رُسِّخَت، وتم تأكيدها من الديانات والأفكار الإصلاحية، والأعمال الفنية والأدبية.

والحق والخير والجمال قيم في ذاتها، لا وسائل لتحقيق غايات؛ فجمال الزهرة قيمة ذاتية. فالقيم ليست ذاتية خالصة، ولا موضوعية صِرفة، ففيها عنصر ذاتيّ، لكن مردُّها إلى صفة في الموضوع توجب الحكم عليه بأنه حق أو خير أو جميل.[٣]

لقد أبدع الإنسان الآثار الجميلة قبل أن يفلسف موضوعها، ثم عرض للبحث فيها بالنظر العقلي ومناهجه؛ فكانت "فلسفة الجمال"، واصطنع المناهج التجريبية في دراستها؛ فكان "علم الجمال".[٤]

وعلم الجمال يعني الحديث عن العلاقات الإنسانية في الواقع؛ فالعلاقات الجمالية لا تقتصر على الفن فقط، بل تشمل –أيضا- موقف الإنسان من: الله، والكون، والإنسان. ولعل الجمال هو أكثر ما دعا الإنسان إلى إدراك عظمة خالقه، وكمال خلقه؛ فهو من أبلغ لغات الكون، ومن أكثرها دعوة لتأصيل القيم الإنسانية. يقول الشامي: "الظاهرة الجمالية في هذا الدين بناء متكامل، يشد بعضه بعضا، في تناسق منتظم بديع، إنها ليست فلسفة فردية استحسنها الآخرون فأضحت مذهبًا، ولا مذهب مدرسة فكرية تعاونت العقول على إنتاجها؛ فأصبحت فلسفة مذهبية. إنها كيان قائم في ذاتيّة هذا الدين، تدخل في لُحْمته وسَدَاه، تظهر من خلال التناسق والتنظيم، ومن خلال المواءمة والتعاون.... فكل ما يأمر به هذا الدين يوصل إلى الجمال."[٥]

والخالق سبحانه-الذي أبدع هذا الكون- من صفاته أنه جميل، وقد أبدع هذا الكون جميلا، في منتهى الجمال. يقول "ﷺ" مؤكِّدًا أن الجمال من خصائص الذات الإلهية: ((إن

---

(٢) د. مصطفى عبده محمد خير: مدخل إلى فلسفة الجمال (محاور نقدية وتحليلية وتأصيلية)، مكتبة مدبولي-القاهرة، ط: الثانية ١٩٩٩م، ص: ٢٣.

(٣) د. مصطفى عبده: مدخل إلى فلسفة الجمال، ص: ٢٥.

(٤) السابق، ص: ٢٩.

(٥) صالح أحمد الشامي: الظاهرة الجمالية في الإسلام، المكتب الإسلامي-بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص: ٢٥.

الله جميل، يحب الجمال.))[٦]

والملاحظ على صفاته "سبحانه وتعالى"، وأسمائه الحسنى كلها؛ أنها متداخلة مع الجمال، وفي معناه، كالعدل، والكريم، والرحيم، والغفور، والمجيد، والحميد....إلخ.

وفكرة هذا البحث تسعى إلى استنباط القيم الجمالية عند العرب المسلمين من مظانِّها الأساسية، بعيدًا عن التأثيرات الفكرية الأجنبية التي خضعت لها معظم الدراسات التي ظهرت في القرن العشرين عن التراث العربي الإسلامي عامة، والقيم الجمالية خاصة.

وهذه الدراسة ترمي إلى الكشف عن مادة غنية، وقيم جمالية متميزة من خصائص المجتمع العربي الإسلامي، وأنها ليست تقليدًا للغرب.

ولقد وجد-عبر التاريخ الطويل للإسلام- مفكرون وفلاسفة ومتصوفة؛ كانت لهم نظراتهم الجمالية والفنية في كتبهم، مثل: الجاحظ، والكندي، والفارابي، وابن سينا، والتوحيدي، وابن عربي، والغزالي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن الجوزي، وابن الفارض، وابن الدباغ، وغيرهم، ممن لا يتسع المجال لتعداد أسمائهم، من: شعراء، وأدباء، وفلاسفة، ومتصوفة.

ومن هنا جاءت هذه الدراسة نموذجًا متواضعًا، ومثالًا بسيطًا لفلسفة الجمال والقيم الجمالية في الإسلام. وقد خصصت نموذجين للدراسة؛ حيث المجال لا يسمح بالاستفاضة في الموضوع. هذان النموذجان قلَّما كُتب عنهما، ولا يعرف عنهما إلا القليل، رغم عِظَم ما قدَّماه للفكر الإسلامي من إسهامات وإبداعات متنوعة، وبشكل متميز وفريد من نوعه.

هذان العلمان يمثلان مراحلة مختلفة من التصوف الإسلامي، الذي كان له أثره في الحياة الفكرية والروحية بالإسلام.

وكان النموذج الأول لفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة-كما وصف بذلك- "أبا حيَّان التوحيدي"، من صوفية القرن الرابع الهجري.[٧]

---

[٦] رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، حديث رقم ١٣.

[٧] د. أبو العلا عفيفي: التصوف الثورة الروحية في الإسلام، ط: دار المعارف، الأولى ١٩٦٣م، ص: ٩٢، د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، ط: الثالثة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، دار الثقافة، ص: ١٦٨.

وقد عاصر "التوحيدي" رُقِيّ الحياة والحركات الفكرية والعقلية، وتقدم العلوم والفنون، وتنوع الثقافات والحركات الفكرية، وقد ظهر أثر ذلك كله في كتبه ورسائله.

ثم تأتي الشخصية الثانية من شخصيات البحث، وهي –أيضًا- لصوفي، عاش في القرن السابع الهجري؛ هو "ابن الدباغ"، وقد واكب مرحلة تطور الفكر الصوفي في صورته الفلسفية؛ حيث ظهر متفلسفة الصوفية منذ القرن السادس وما بعده.(٨)

وفي هذا القرن وجد وعاش هذا الفيلسوف الصوفي، الذي اهتم –كثيرًا- بنظرية الجمال من منطلق صوفي، كما سيظهر بالبحث.

أسباب اختيار الموضوع:

١- لم يكتب عن هذا النوع الفلسفي القيمي إلا القليل النادر؛ فالحديث عن التصوف كثير، لكن الحديث عن التصوف الفلسفي المعني بالجانب الجمالي كان قليلًا.

٢- تخصيص الدراسة لهذين العلمين؛ لما أسهماه من أثر في فلسفة الجمال، والاهتمام بها في جانب كبير من كتبهما، ولما بلغاه من قيمة أدبية وفنية وفلسفية في عصريهما، رغم كثرة المحن والمصاعب والفتن التي لاقاها كل منهما في حياته، كما سيتضح من البحث، وهما بالدرجة الأولى متصوفة في أزهى عصور التصوف.

٣- الرغبة الأكيدة في تأصيل القِيَم الجمالية في الإسلام، من منابعها الأصيلة الأولى، والتأكيد على عدم التقليد الأعمى للغرب، وتقديم صورة للفكر الجمالي المتزن المتكامل الأركان، والذي لم يتغافل عن جانب من الجوانب الإنسانية.

منهج البحث:

١- المنهج التحليلي الاستنباطي، بدراسة وتحليل ما استقرأه الباحث من النصوص والأفكار، واستنباط الأحكام والمعلومات من النصوص.

٢- المنهج الاستدلالي، بالتأصيل والبرهنة على كل ما يطرح بالبحث من أفكار ونظريات؛ من مصادرها الأصلية قدر المستطاع.

---

(٨) أبو الوفاء التفتازاني: مدخل إلى التصوف، ص: ١٧٤، والشيخ عبد المجيد محمد عبد المجيد الشافعي: الصوفية في ضوء الكتاب والسنة المحمدية، دار الاعتصام-القاهرة، ص: ٣٠- ٣١.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والتقصي؛ لم أجد دراسة تحمل هذا العنوان، وكل ما عثرت عليه نصوص مبعثرة في ثنايا الكتب، وهي نصوص تتناول موضوع الجمال عامة، في الإسلام أو غيره، أو تدرس الجمال عند شخصية أخرى غير اللَّتين تناولهما البحث.

من تلك العناوين-على سبيل المثال:

١- "مفهوم الجمال في الفكر الإسلامي" للدكتور جميل علي رسول السورجي، أستاذ مساعد بجامعة صلاح الدين الأيوبي بالعراق، مجلة الشريعة، لعام ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م.

٢- "الأصول الجمالية والفلسفية للفن الإسلامي-دراسة مقارنة" للباحث: رفاعي أنصار محمد عوض الله، رسالة دكتوراه بجامعة حلوان عام ٢٠٠٢م، بمكتبة الإسكندرية.

٣- رسالة ماجستير بعنوان "الجمال في القرآن الكريم –دراسة موضوعية"، إعداد: محمد بن جمعة العمراني، جامعة مؤتة –الأردن، عمادة كلية الدراسات العليا ٢٠١٢م.

٤- رسالة ماجستير للباحث: محمود محمد حسن، بعنوان "القِيَم وفلسفة الفن عند دي ويت باركر"، جامعة سوهاج، وتهدف الدراسة إلى إلقاء الضوء على فكر "باركر" حول القيمة الجمالية وعلاقتها بالفن والجمال.

٥- بحث في "معايير الجمال في الرؤيتين الإسلامية والغربية" للباحث" عبد الله بن محمد العمرو، جامعة محمد بن سعود الإسلامية –الرياض، مجلة العلوم الشرعية، العدد: الثامن والثلاثون ١٤٣٧هـ / ٢٠١٥م.

٦- رسالة ماجستير بعنوان "الجمال في ضوء السنة النبوية –دراسة موضوعية" للباحث: عبد الغفور محمد أحمد، الجامعة الإسلامية بغزة ٢٠٠٩م، كلية أصول الدين، قسم الحديث وعلومه ١٤٣٠هـ.

٧- رسالة ماجستير بعنوان "مفهوم المحبة في الفكر الجمالي الصوفي –دراسة مقارنة في شعر "ابن الفارض" و"ابن الدباغ"، إعداد: فاغية عصام قصبجي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية –حلب –سوريا ٢٠٠٢م.

٨- حسين الصديق: فلسفة الجمال وسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي، دار القلم العربي، ودار الرفاعي، ط: الأولى ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م –سوريا –حلب.

٩- سعد الدين كليب: نظرية الجمال العام لدى ابن الدباغ، مجلة نزوى، العدد: ٩٤، أبريل ٢٠١٨، سلطنة عمان، مؤسسة عمان للنشر والطبع.
١٠- عفيف البهنسي: الفكر الجمالي عند التوحيدي، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩م.

وقد جاءت خطة البحث على النحو التالي:

مقدمة:

وقد اشتملت على: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومنهج البحث، والدراسات السابقة، وخطة البحث.

الفصل الأول: علم الجمال –نشأته وتطوره.

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: التعريف بمصطلحات البحث.

المبحث الثاني: الجمال –مفهومه، نشأته، تطوره.

الفصل الثاني: القيم الجمالية في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

التأصيل الإسلامي لفلسفة الجمال في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة.

الفصل الثالث: القِيَم الجماليَّة في فكر كل من: "أبو حيان التوحيدي"، و"ابن الدباغ".

ويحتوي على مبحثين:

المبحث الأول: القيم الجمالية في كتابات أبي حيان التوحيدي.

المبحث الثاني: القيم الجمالية في كتابات ابن الدباغ.

ثم تأتي **الخاتمة**، وفيها: أهم التوصيات، وفهارس البحث.

الفصل الأول

الجمال (نشأته وتطوره)

ويتضمن مبحثين:

المبحث الأول: التعريف بمصطلحات البحث.

المبحث الثاني: الجمال (مفهومه – نشأته – تطوره)

المبحث الأول التعريف بمصطلحات البحث

لا بُدَّ- عند بداية أي بحث- من التعريف بمصطلحات البحث؛ حتى يتم إلقاء نظرة إجمالية على طبيعة موضوع الدراسة. ومبحث "القِيَم" واحد من ثلاثة مباحث رئيسة للفلسفة، هي: مبحث الوجود، أو "الأنطولوجيا"(٩)، ومبحث المعرفة أو "الأبستمولوجيا"(١٠) ومبحث القِيَم أو "الإكسيولوجيا".(١١)

و"الإكسيولوجيا" أو "فلسفة القِيَم" هي موضوع البحث. وقبل الحديث عنها ينبغي إلقاء الضوء على مفهوم كلمة "قيمة" (مفرد "القيم") في اللغة والاصطلاح.

أولا- مفهوم "القِيَم" في اللغة والاصطلاح:

"القيمة" واحدة "القِيَم"، وأصله "الواو"؛ لأنه يقوم مقام الشيء، يقال: قَوَّمْتُ السلعة. والاستقامة: الاعتدال، يقال: استقام له الأمر. قال الله "تعالى" [فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ](١٢) أي: في التوجه إليه دون الآلهة. وقَوَّمْتُ الشيء، فهو قويم، أي: مستقيم. والقَوَام: العدل. قال تعالى: [وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا](١٣) وقَوَام الرجل: قامته وحسن طوله، وقِوَام الأمر –بالكسر- نظامه وعماده، والجمع: قِيَم. والقَيُّوم: اسم من أسماء الله الحسنى.(١٤)

---

(٩) "أنطولوجيا": لفظ أجنبي، استخدث في نهاية القرن السابع عشر، بمعنى: الأمور العامة، وهي ما لا يختص بقسم من الأقسام للموجودات، والتي هي: الواجب، والجوهر، والعَرَض. بل تقال على الموجود من حيث هو كذلك، فتعم جميع الموجودات. وفي الفلسفة المعاصرة: هو علم الموجود من حيث هو موجود. [راجع: مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء للطباعة ١٩٩٨م-القاهرة، ص: ١١٤.]

(١٠) "أبستمولوجيا": لفظ أجنبي مشتق من المقطعين اليونانيين: episteme بمعنى "المعرفة"، وlogos بمعنى "علم"، وهو فرع من فروع الفلسفة، يبحث في: أصول المعرفة، وبِنْيَتِها، ومناهجها، ومصداقيتها. [مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ص: ١٤.] وقيل: هي بمعنى "نظرية العلوم"، أو "فلسفة العلوم"، وتعني: دراسة العلوم، ومبادئها، وفرضياتها، ونتائجها-دراسة انتقادية، تبرز قيمتها الموضوعية، وأصلها المنطقي. [راجع: جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني-بيروت-لبنان ١٩٨٢، ج: ١، ص: ٣٣.]

(١١) "إكسيولوجيا": لفظ مشتق من مقطعين يونانيين، هما: Axios بمعنى "قيمة"، وlogos بمعنى "عقل"، أو "نظرية". وهو لفظ يطلق-حاليا- على نظرية القِيَم، وطبيعتها، ومعاييرها. وقد أطلق هذا المصطلح على القِيَم في القرن العشرين. [راجع للمزيد: مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ص: ٨٧.]

(١٢) فصلت: ٦.

(١٣) الفرقان: ٦٧.

(١٤) أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (متوفى ٣٩٨هـ): الصحاح "تاج اللغة وصحاح العربية"، تحقيق: د. محمد محمد تامر، وأنس الشامي، دار الحديث-القاهرة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص: ٩٨٧. وزين الدين أبو بكر الرازي: مختار الصحاح،، تحقيق: محمود خاطر وحمزة فتح الله، مؤسسة الرسالة، ط: الحادية عشرة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص: ٤٨٣.

وقَيَّمَ الشيءَ تقييما: قدَّر قيمته.([١٥]) وجاء في المعجم الوجيز: القَوَام: العدل، والقِوَام: قوام كل شيء: عماده ونظامه، وقيمة الشيء: قدره وثمنه، واستقام الشيء: اعتدل واستوى.([١٦])

من خلال التعريفات السابقة يتضح أن معاني "القيم" في اللغة كلها تدور حول الثبات، والدوام، والاعتدال.

مفهوم "القِيَم" في الاصطلاح:

القيم أو القيمة تطلق ويراد بها معان مختلفة باختلاف: الذاتية، ومن الناحية الموضوعية، وفي مجال الأخلاق، وعند علماء الاقتصاد، وفي مجال الاعتبار والحقيقة، والذاتي والمضاف، والكم وغيره، وفي مجال العلوم، من حيث: أن يكون الشيء مرغوبا فيه لذاته، أو لما يضاف إليه.....إلخ. مما يعد القول بوجود قيمة واحدة لها نموذج ذهني ضابط يسمى (التعريف أو الحد) غير متوفر، وإنما هي –في الحقيقة- قيم متعددة لما يضاف إليها. وقيمة الشيء هي ما قوم به مقوم، وهي ترادف الثمن. ومن وجهة النظر الذاتية: هي مايكون به الإقبال على الشيء وطلبه من جهة معينة، فإذا كانت لما للشيء من منافع؛ فهي قيمته الاستعمالية، وإذا كانت لما يمكن أن يبادَل به من سلع أخرى؛ فهي قيمته المتبادلة. والقيمة –من وجهة نظر موضوعية- هي ما يكون به طلب الشيء واستحقاقه التقدير، فإذا كانت لذات الشيء فهي قيمته المطلقة، وإذا كانت لما فيه من منافع فهي قيمته الإضافية. وقيمة الفعل الأخلاقية هي ما فيه من خير، وبقدر اقترابه من صورة الخير في الذهن بقدر زياد هذه القيمة، وصورة الخير في الذهن قيمته مثالية، هي أساس الأحكام القيمية.([١٧])

وجاء في المعجم الفلسفي لـ "جميل صليبا" أن **قيمة الشيء** تطلق على ما للشيء-في نظر الشخص الذي يطلبه- من قدر وثمن. وهذا المعنى مختلف عن المنفعة؛ لأن الشيء قد يكون ذا قيمة عظيمة في نظر بعض الناس، ولا يكون له-مع ذلك- نفع حقيقي. ويطلق

([١٥]) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ط: الخامسة ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م، مكتبة الشروق الدولية، ص: ٧٩٩.

([١٦]) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ص: ٥٢١، ومحمد علي التهانوي: كشاف اصطلاح الفنون، بيروت، بدون تاريخ، ج: ١، ص: ١٧٨، ومحمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس، دار صادر-بيروت ١٩٦٦م، المجلد ٩، ص: ٣٥ وما بعدها.

([١٧]) عبد المنعم الحفني: المعجم الفلسفي، الدار الشرقية، ط: الأولى ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ص: ٢٧٢.

لفظ "القِيْمَة"-من الناحية الموضوعية- على ما يتميز به الشيء من صفات تجعله مستحقا للتقدير-كثيرًا أو قليلا. فإذا كان مستحقا للتقدير بذاته، كالحق والخير والجمال؛ كانت قيمته مطلقة. وإن كان مستحقا للتقدير من أجل غرض معين، كالوثائق التاريخية؛ كانت قيمته إضافية.

ويطلق –أيضا- في علم الأخلاق على ما يدل عليه لفظ "الخير"، بحيث تكون قيمة الفعل تابعة لما يتضمنه من خيرية، فكلما كانت المطابقة بين الفعل والصورة الغائيَّة للخير أكمل؛ كانت قيمة الفعل أكبر. وتُسَمَّى الصورة الغائيَّة المُرتَسمة على صفحات الذهن بـ "القِيَم المثالية". وفلسفة القِيَم هي البحث عن الموجود من حيث هو مرغوب فيه لذاته، وهي تنظر في قِيَم الأشياء وتحللها، وتبين أنواعها وأصولها، ونظرية القِيَم هي البحث في طبيعة القيم وأصنافها ومعاييرها، وترتبط بالمنطق وعلم الأخلاق وفلسفة الجمال والإلهيات.(١٨)

وهناك من ربط بين القيم والمعايير فعرَّفها بأنها: "معايير تضع الأفعال وطرق السلوك، وأهداف الأعمال؛ على المستوى المقبول أو غير المقبول، والمرغوب فيه وغير المرغوب فيه، والمستحسن أو المستهجن."(١٩)

فالقِيَم إنما هي موجِّهات لسلوك الأفراد. والسلوك إنما هو معيار لتحديد درجة اكتساب القيمة؛ حيث يمثل السلوك الصفة الظاهرة للنفس، ويُدرَك بالبصر، بينما يمثل الخُلُق الصفة الباطنة للنفس، ويُدرَك بالبصيرة.(٢٠)

وينظر الإسلام للقيم نظرة تكاملية، فهو يأخذ بالقيم الموضوعية المطلقة النابعة من القرآن والسنة النبوية المطهرة، كقِيَم التقوى والإحسان، كما يأخذ بالقِيَم المادية المرتبطة بواقع الحياة، والمُتَّسِقة مع التراث الاجتماعي، كقِيَم الطهارة والنظام والأُخوَّة، فالقِيَم جوهر الأخلاق في الإسلام، والقِيَم-في الإسلام- قادرة على أن تتمثل في كل قيمة جديدة تتفق مع الإطار العام للشريعة الإسلامية.

---

(١٨) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، ج: ٢، ص: ٢١٣- ٢١٥، ومراد وهبة: المعجم الفلسفي، ص: ٥٤٢.

(١٩) سعد علي: دراسات في فلسفة التربية، عالم الكتب-القاهرة ١٩٨١م، ص: ١٨٥.

(٢٠) محمد ربيع جوهر: أخلاقنا، سلسة إسلاميات، العدد: ١٢، المؤسسة العربية الحديثة (د. ت) ص: ٩٥.

ثانيا- مفهوم "الجمال" في اللغة والاصطلاح:

في اللغة:

الجمال مصدر الجميل، والفعل منه: جَمُل يَجْمُلُ. قال تعالى: [وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ فَلَا (٢١) أي: بهاء وحُسْن. ويقال: جامَلْتُ فلانا مُجَاملة: إذا لم تصف له المودة. ويقال: أجْمَلت في الطلب.(٢٢) وجَمَل الشيء جَمْلًا: جمعه عن تفرق. وجَمُل فهو جميل، والجمع: جُمَلاء وجَمَائِل. وجامله: عامله بالجميل. وجَمَّلَه: حسَّنه وزيَّنه. والجُمَّال: البالغ الجمال.(٢٣)

وقال "ابن فارس" في معجم مقاييس اللغة: الجيم والميم واللام أصلان، أحدهما: عِظَم الخَلْق، والآخر: حُسْن، وهو ضد القبح. وتجمَّل: تزيَّن. فالجمال تدور معانيه –في اللغة- حول الزينة والحسن والبهاء والنضرة.(٢٤)

اصطلاحا:

يصعب وضع تعريف محدد للجمال، يكون بمثابة الحد له؛ لأن ميادين الجمال مختلفة ومتنوعة، ولأن من الجمال ما هو إلا صفة عينية في الشيء الجميل، بحيث يمكن إدراكه من الناس جميعا. ومنه ما يتوقف إدراك جماليته على تذوق الإنسان له، وما يبعثه فيه من مشاعر السرور والبهجة، ولذا يتفاوت الناس في الحكم عليه بالجمال أو عدمه.

ومن هنا اختلفت وجهات نظر الفلاسفة حول مفهوم الجمال، تبعا لاختلاف الأذواق والمشاعر والمناهج المعرفية، والمواقف الميتافيزيقية.

إن مفهوم الجمال متناول في دراسات عديدة منذ القدم وحتى الآن؛ فقد جاء في

---

(٢١) النحل: ٦.

(٢٢) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي: معجم العين، وزارة الثقافة والإعلام ١٩٨٢م، تحقيق: د.مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، ج: ٦، ص: ١٤٢- ١٤٣، وأبو منصور محمد بن أحمد الأزهري: تهذيب اللغة، الدار المصرية للتأليف ١٩٧٥م، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مراجعة: أ. علي محمد البيجاوي، ج: ١١، ص: ١٠٦- ١١٠.

(٢٣) إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، تصدير: د. إبراهيم مدكور-القاهرة ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م، ج: ١، مادة (ج م ل) ص: ١٤١- ١٤٢.

(٢٤) ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، بيروت ١٤٢٠هـ، ج: ١، ص: ٤٨١. والرازي محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، د. ط-بيروت-لبنان ١٩٨٩م، مادة (ج م ل) ص: ١١١.

"التعريفات" للجرجاني: أن الجمال من الصفات ما يتعلق بالرضا واللطف.[٢٥]

وقد عرف الجمال الكاتب "مصطفى لطفي المنفلوطي" بأنه: هو التناسب بين أجزاء الهيئات المركبة، سواء أكان ذلك في الماديات، أو في المعقولات، وفي الحقائق أو في الخيالات؛ فما كان الوجه جميلا إلا للتناسب بين أجزائه، وما كان الصوت الجميل جميلا إلا للتناسب بين نغماته.[٢٦]

وجاء أيضا أن الجمال-عند الفلاسفة- صفة تُلحظ في الإنسان، فتبعث في النفس سرورًا ورضى، والجمال-من الصفات- ما يتعلق بالرضا واللطف. قال "كانط" الجمال هو ما يبعث في النفس الرضا، دون تصور أن ما يحدث في النفس عاطفة خاصة تسمى بعاطفة الجمال. والجمال والقبح-بالنسبة إلى الانفعال- كالخير والشر بالنسبة إلى الفعل. والجمال مرادف للحُسْن، وهو تناسب الأعضاء، وأكثر ما يقال في عُرْف العامة في المستحسن بالبصر، وكمال الحُسْن في الشعر، والوَضَاء في البشرة، والظُّرْف في اللسان، والتوازن في الأشكال، والانسجام في الحركات.

والجميل هو الكائن على وجه يميل إليه الطبع، وتقبله النفس. غير أن ما يميل المرء إليه طبعا؛ يكون جميلا طبعا، وما يميل إليه عقلا؛ يكون جميل عقلا. والعلم الذي يبحث في الجمال ومقاييسه ونظرياته يسمى بـ "علم الجمال" (الاستاطيقا).

والجمال الإلهي عبارة عن أوصافه المشتملة على الرحمة واللطف والجود.... أما جلاله فهو ما يتعلق بالربوبية والقدرة والعظمة والكبرياء، فالجميل يبعث على البهجة والرضا، والجليل يبعث على الخشية والدهشة والرهبة.[٢٧][٢٨]

---

(٢٥) الجرجاني: علي بن محمد بن علي: التعريفات، عالم الكتب-بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، ص: ٨٢.

(٢٦) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات، دار الجيل-بيروت ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ج: ١، ص: ١٦٧.

(٢٧) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج: ١، ص: ٤٠٧- ٤٠٨.

(٢٨) اختلف علماء الكلام في وجه الحكم على الفعل بأنه حسن أو قبيح، فالمعتزلة-بمقتضى الأصل الثاني عندهم، وهو "العدل الإلهي"، والذي هو صفة للفعل الإلهي، من حيث صلته بالإنسان؛ لذا فهم يقولون بالحسن والقبح العقليين، وأن الأفعال إنما توصف بالحسن أو القبح لصفات تخصها وذاتية في الفعل، وترتبط نظرتهم في الحسن والقبح بنظريتهم الأخلاقية، ولذا فقد نفوا عن الله "تعالى" صدور القبح عنه.

[انظر: في علم الكلام: د. أحمد محمود صبحي، مؤسسة الثقافة الجامعية ١٩٩٧م، ج: ١، ص:١٥٤].

أما الأشاعرة، فالحسن أو القبح-عندهم- شرعيان، بناء على إثبات القدرة المطلقة، والإرادة الإلهية الحرة العامة والشاملة لله "سبحانه وتعالى"، فلا مجال للحكم على أفعال الله "تعالى" بالتحسين والتقبيح؛ حيث لا

وقيل: إن الجمال الحقيقي صفة أزلية لله تعالى، شاهدة على ذاته –أولًا- مشاهدة علمية، فمن أراد أن يراه يراه في صنعة مشاهدة عينية، فخلق العالم كمرآة شاهد فيه عين جماله عيانا.

والقبح في الأشياء إنما هو بالاعتبار، لا بنفس ذلك الشيء. أما القبيح المطلق فلا وجود له.

والجميل: هو ما يخاطب في النفس الإحساس بالجمال، أو عاطفة الجمال، وهو بخلاف الجليل، حيث الأول محرك للرضا، وباعث على السعادة، والثاني يثير في النفس الرهبة والخشية.(٢٩)

وهو إحدى القيم الثلاث التي تُرَدُّ إليها الأحكام التقويمية: (الحق، الخير، الجمال)

ويقول الإمام الغزالي في الإحياء: "الجمال يختلف-في صفاته وشروطه- باختلاف الأشياء، فكل شيء جماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة؛ فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها؛ فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر، فالفرس الحَسَن هو الذي يجمع كل ما يليق بالفرس، من: هيئة، وشكل، ولون، وحُسْن عَدْو. والخط الحَسَن هو كل ما جمع ما يليق بالخط، من: تناسب الحروف، وتوازيها، وحسن تنظيمها، واستقامة ترتيبها....."(٣٠)

وعُرِّف أيضا بكون الجمال يكون في الصورة وتركيب الخِلقة، ويكون في الأخلاق والعاطفة، ويكون في الأفعال. فأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من: العلم، والحكمة والعدل، والعفة، وكظم الغيظ، وإرادة الخير لكل أحد. وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق، وقاضية لجلب المنافع فيهم، وصرف الشر عنهم. وأما جمال الخِلقة فهو أمر يدركه البصر، ويُلْقِيه إلى القلب –متلائما، فتعلق به النفس من

يجب على الله "تعالى" شيء، والشر إنما هو بالعرض لا بالذات، أما الشر المحض أو الشر الكلي فغير موجود.

[انظر: المرجع السابق، ج: ٢، ص: ٣٥٢.] بالإضافة إلى آراء أخرى عديدة لفلاسفة وعلماء الكلام وغيرهم.]

(٢٩) عبد المنعم الحفني: المعجم الفلسفي، ص: ٨٢.

(٣٠) الإمام أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، مكتبة الإيمان ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، تحقيق: الشحات الصحان وعبد الله المنشاوي، ص: ٢٥٤.

غير معرفة بوجه ذلك، ولا نسبته لأحد من البشر.(٣١)

ويرى "لسان الدين ابن الخطيب"، الشاعر الصوفي الأندلسي؛ أن الكمال مُظْهِر الجمال، ومرآة صورته، والكمال مُجْلِي الجمال الروحاني، والنفوس الإنسانية مُولَعة به، واقفة عنده، والإنسان يحب الجمال لذاته، سواء أكان من الصورة الباطنية، كالمعاني والصفات، أو كان من الصور الظاهرة، كأشخاص: الإنسان والحيوان.(٣٢)

وقال الفيلسوف الحدسي "برايس" Price أن الجمال حالة في الشيء الجميل، تلازمه، وتقوم فيه، ولو لم يوجد عقل يقوم بإدراكها؛ فالشيء الجميل يقوم بالقياس إلى ما فيه من خصائص تثير الإعجاب بجماله.(٣٣)

فالجمال –حينئذ- صفة عَيْنيَّة لا تتغير. وهذا بخلاف من رأى أن الجمال معنى عقليّ، وليس صفة عَيْنيَّة، وبالتالي فهو يتغير من فرد لآخر، ليكون –بذلك- مرهونًا بالتأثير الذي يُحدِثه في نفوس الذين يتصلون بآثاره، فهو نسبي. ومن دعاة هذا الرأي: "تولستوي" Tolstoy. وبناء على ذلك، يرى أصحاب الوضيعة المنطقية أن الجمال والقبح كالخير والشر في أنهما لا يعبران عن وقائع، ولكنهما يعبران عن عواطف ومشاعر وانفعالات، ومن ثَمَّ، فلا توصف العبارات الجميلة بالصواب أو الخطأ، وإن كان من الممكن دراسة "الجمال" دراسة موضوعية، لا من حيث النظر إلى ما ينبغي أن يكون عليه الشيء، بل لبيان علة الشعور بالجمال عند الفرد أو الجماعة، وتفسير التذوق الجمالي، وأسباب اختلافه.(٣٤)

والجمال يراد به فلسفة الوجدان؛ لأنه يعرض لدراسة الذوق الجمالي: سيكلوجيًّا، وتاريخيًّا، واجتماعيًّا، وميتافيزيقيًّا. وقيل: إنه علم الجميل، وفلسفة الفنون الجميلة، وهو يتناول أحكام الجمال التي تعبر عن اللذة والألم، ويتعرض لدراسة الفن وآثاره. وبهذا تصبح غايته: وضع معايير للتمييز بين الجمال والقبح، ورسم قواعد بمقتضاها يتحقق

---

(٣١) الإمام القرطبي (أبو عبد الله محمد): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار اكلتب المصرية-القاهرة، ط: الثانية ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م، ج: ١٠، ص: ٧١.

(٣٢) عبد العزيز بن عبد الله: الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب، دار الغرب الإسلامي-بيروت-لبنان، ط: الثانية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص: ٧٩.

(٣٣) توفيق الطويل: أسس الفلسفة، دار النهضة العربية-القاهرة، ط: السابعة ١٩٧٩م، ص: ٤٥٩.

(٣٤) توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ص: ٤٥٩.

الجمال في الآثار الفنية.[٣٥]

وقد عرَّفه "كانط" بأنه: هو الذي يبعث السرور بصورة كُلِّية، وبدون تصور محدد. وقال "جورج سنتايانا" إن الجمال: قيمة إيجابية باطنية ذات موضوع محسوس، أو هو المتعة النابعة من صفة شيء من الأشياء."[٣٦]

فالجمال-كقيمة جمالية موجودة في ثنايا الكون، وآثاره مبثوثة في أرجائه- واحد لا اختلاف فيه، لكن الاختلاف إنما يكون في تذوُّقه والإحساس به، وذلك بسبب التفاوت الطبيعي في إدراكات البشر وأحاسيسهم واختلاف أذواقهم.

فالجمال مفهوم نسبي، تتفاوت معاييره من شخص لآخر، ومن بيئة لأخرى. كما تتفاوت درجاته بين البشر. ومن هنا يتضح أن الجمال –كمصطلح- يصعب تحديده؛ لاختلاف الناس في معاييره.

* * *

---

(٣٥) السابق، ص: ٤٧١.

(٣٦) صالح أحمد الشامي: الظاهرة الجمالية في الإسلام، المكتب الإسلامي-سوريا ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، ص: ١١٦.

المبحث الثاني: الجمال (نشأته – تطوره)

لا شك أن الجمال قد أثار افتنان الناس من قديم الزمان. وقد أبدع الإنسان الآثار الجميلة قبل أن يُفَلسف موضوعها، ثم عرض للبحث فيها بالنظر العقلي ومناهجه؛ فكانت فلسفة الجمال، واصطنع المناهج التجريبية في دراستها؛ فكان علم الجمال التجريبي الذي انصرف عن دراسة الجمال كما ينبغي أن يكون إلى البحث الواقعي فيه كما هو كائن بالفعل.(٣٧)

إذن، علم الجمال قديم حديث؛ فهو قديم كأفكار جماليَّة ونوازع ومشاعر وعواطف مرتبطة بوجود الإنسان، ولكنه حديث كعلم مقنن، له نظرياته ومؤسسوه.

وقد برزت للمرة الأولى كأفكار جمالية في الفلسفات ما قبل سقراط حيث القدماء المصريون، ووجود آثار لرسوم ونقوش على جدران المعابد، وكفكر جمالي عند "فيثاغورس"، ثم كان العصر الذهبي عند "سقراط" و"أفلاطون" و"أرسطو". وقد خلط اليونانيون بين: فلسفة الجمال، وعلم الجمال، وفلسفة ما بعد الطبيعة؛ فقد عُنِي "أفلاطون" و"أرسطو" بالدراسات التي تقوم على أسس فلسفية، ولا تسند إلى مناهج تجريبية، حتى جاء الفيلسوف الألماني "الاكساندر بومجارتن" [١٧١٨ – ١٧٦٢م] في كتابه "تأملات في الشعر" ١٧٣٥م، حيث وضع الأساس النظري لعلم الجمال Aesthtics بمعنى فلسفة "الجمال"، وقد تابعه-في استقلال علم الجمال- تلميذه "مايير"، ثم "شافتسبري" بفلسفته الجمالية في الأخلاق عام ١٧١٣م، وغيرهم من الفلاسفة.(٣٨)

ويعتبر "كانط" مؤسس علم الجمال في صورته العلمية؛ حيث وضع نظرياته في الجمال والكمال، وبحث في طبيعة الفن، والمناهج التي تُتَّبع في تصنيف الفنون الجميلة، وتبعه "هيجل" (١٨١٣م) حيث ظهرت المدرسة "الرومانتيكية" عند "شيلنج" (١٨٥٤م) و"شوبنهور" (١٨٦٠م) وتبعهم فلاسفة آخرون، يصعب حصرهم في هذا البحث.(٣٩)

وقد لوحظ-عند التتبع لتاريخ الجمال الإنساني- أنه فكر ضارب في القدم منذ فجر

---

(٣٧) توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ص: ٤٧١.

(٣٨) د. مصطفى عبده محمد خير: مدخل إلى فلسفة الجمال، ص: ٢٩. وتوفيق الطويل: أسس الفلسفة، ص: ٤٧٣.

(٣٩) د. مصطفى عبده: مدخل إلى فلسفة الجمال، ص: ٣١.

التاريخ؛ فالجمال ليس في الجمال الفني فحسب، من: نحت، وتصوير، وغناء، وموسيقى، ورسوم، وشعر؛ بل هو ظاهرة كُلِّيَّة وقِيمَة مطلقة كامنة وكائنة في الأشياء (ماديًّا، ومعنويًّا، وجماليًّا)، ومفطورة في كل الأبعاد النفسية للإنسان، وهي موجودة في كتاب الله تعالى المنظور (الكون) وفي كتاب الله سبحانه المقروء (القرآن الكريم) وفي المنهج الرباني. فقد أشار القرآن –صراحة- إلى التصوير الفني في آياته البيّنات، وألمح إليه في اللمحات الجمالية، والإشارات الإبداعية، والصور البلاغية في العديد من آيات القرآن الكريم.(٤٠)

فالجمال سِمة واضحة في الصَّنْعة الإلهية، وتلبية لحاجيات الفطرة الإنسانية، وهو حقيقة ثابتة، وسمة بارزة في الكون والحياة والإنسان؛ فقد أبدع الله "تعالى" الكون على نمط جمالي ينحو نحو الكمال، ويبدو هذا جليًّا في الاتساق والإبداع والنظام والترتيب لكل ما في الكون، فالجمال ليس صفة عُيْنِيَّة مستقلة عن العقل الذي يتذوقه، ولا معنًى عقليًّا خالصًا جامدًا؛ بل هو مراج بين العقل والوجدان.

وقد جاء هذا على خلاف ما تصوره فلاسفة المذهب الطبيعي، الذين جعلوا الطبيعة – وحدها- منبع الإبداع والفن. وعلى خلاف فلاسفة المذهب المثالي، الذين قصروا الإبداع على الوجدان والعاطفة فقط. وعلى عكس فلاسفة المذهب الرومانتيكي في المغالاة بالوجدان والخيال والعاطفة، وإغفال العقل. والمذهب الرمزي بعرض القيم الروحية من خلال الرموز المجردة. والمدرسة العقلية التي تَرُدُّ الجمال إلى حكم عقلي محض.(٤١)

ويشهد التاريخ الإنساني أن الإنسان-منذ فجر التاريخ- قد وُجِد لديه إبداعات فنية وجمالية من خلال تلك(٤٢) الآثار الفنية والأدوات التي خلَّفها وأبدعها إنسان العصر

---

(٤٠) وسوف يتضح بيان ذلك بشيء من التفصيل بمكانه في الفصل الثاني من البحث.

(٤١) د. مصطفى عبده: مدخل إلى فلسفة الجمال، ص: ٣٣- ٣٤.

(٤٢) هناك من دمج بين الفن والجمال، حيث يرى كثير من الكتاب المحدثين الربط بين مفهوم الفن والجمال، حيث الفن متعة استطيقية أو لذة جمالية، فيعرفون الفن بأنه القدرة على توليد الجمال أو المهارات في استحداث متعة جمالية، فلفظ "الفن" يطلق على شتى ضروب النشاط أو الإنتاج التي ينبغي أن تتولد منها آثار جمالية، فالفن مجرد مهارة في إحداث الجمال، أو إرضاء الحس الاستطيقي لدى الإنسان، دون أن تكون ثمة منفعة خاصة، أو غرض معين، سوى المتعة الجمالية ذاتها. [راجع في ذلك للمزيد: د. زكريا إبراهيم: مشكلة الفن، مكتب مصر، دار مصر للطباعة، ص: ١٢- ١٣، وقيل: إن كلمة "الفن" في بواكيرها تطلق على النشاط الصناعي بصفة عامة، ومن ثم فلم تكن تضم الشعر والموسيقى والغناء وسائر الفنون الجميلة، بل كانت تضم

البدائي، ما قبل اليونان؛ تدل على وجود ذوق فني وحسي بديعي، ومهارة يدوية، فكان هدف الإنسان –آنذاك- تخليد فكرة، وتصوير أسطورة، وتجسيد خيال، أو تعبيرًا عن فكرة وابتكار جديد، والإتقان في عمله. والإتقان يُولِّد جمالًا، والجمال يولد الكمال. وكل ذلك كان تجسيدا للواقع والطبيعة، وتعبيرًا عن خياله وأمانيه.

فعند قدماء المصريين –مثلا- كانوا كلما تأمَّلوا جريان النيل؛ تخيلوا الأزلية والأبدية، وعند شروق الشمس وغروبها يتولد لديهم تصوُّرات شكلت نواة العقيدة، وتوصلوا منها إلى فكرة الخلود، وفلسفة الحياة والموت، وتخيلوا الحياة بعد الممات. يدل على ذلك النقوش التي كانوا يرسمونها على جدران المعابد والتماثيل التي كانوا يشيدونها معبرة عن الخلود والأبدية. وقد أقدم الفنان المصري القديم على تشييد أضخم المشاريع المعمارية والتماثيل الجيرانيتية والرسوم الجدارية الوثائقية، وتكوَّنت-على إثر ذلك- الحضارة المصرية الفرعونية.(٤٣)

والفنان الإغريقي القديم –أيضا- عبَّر عن الكمال الجمساني في صور الآلهة التي أظهرها في صور إنسانية مثالية، فأنزل الآلهة إلى مصاف البشر. في حين أن الفنان الهندي القديم أظهر-في صور الآلهة- صفات الحياة العليا، والمثل الروحانية؛ لإثارة العواطف السامية في نفسية المتعبد والمشاهد؛ حتى يتيح للروح أن تفنى في الميتافيزيقيا.

كما كانت الموسيقى والرقص والغناء والرسوم النحتية المسرحية والتصويرية وظهورها في سمات تعبدية، فكان للفن أهمية كبيرة للتأمل الجمالي الذي يؤدي إلى الاتصال بالجمال المطلق؛ ولهذا كانت البراهمة والبوذية. ثم جاء الحكيم الصيني "كونفوشيوس" والذي-بحِكَمِه ومواعظه- أكد العلاقة بين الفن والأخلاق، وقدرة الفن على التأثير الأخلاقي في الناس، وأن الفن خير وسيلة للتربية على الأخلاق، وبهذا أوجد صلة بين الفن والجمال والأخلاق.(٤٤)

ويعد الحكيم الصيني "كونفوشيوس" أول من اهتم-في الصين- بالجمال، وحوَّل

عددًا كبيرًا من الصناعات الحرفية، كالتجارة والنجارة والحدادة وسواها من وسائل الإنتاج الصناعي. [راجع: محمد عبد الواحد حجازي: فلسفة الفنون في الإسلام، دار الوفاء للطباعة-الإسكندرية، ص: ٤٧.]

(٤٣) د. مصطفى عبده: مدخل إلى فلسفة الجمال، ص: ٣٩، ومحمد علي أبو ريان: فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، دار المعرفة الجامعية-اسكندرية ١٩٩٣م، ط: الثامنة، ص: ٨.

(٤٤) مصطفى عبده: مدخل إلى فلسفة الجمال، ص: ٤٢- ٤٣.

التنجيم إلى دراسة للسلوك الإنساني، وتأثره بالعوامل الطبيعية والاجتماعية، وقد أدى هذا إلى فهم سلوك الفرد، والتنبؤ –علميًّا- بتصرفاته، فلقد أكد "كونفوشيوس" على أهمية الفن كوسيلة للتربية الأخلاقية، ودوره كناحية معرفية.(٤٥)

والجمال محدود بتصورات الفلاسفة للفن، وتقييمهم للجمال بحسب العصر الذي يوجد فيه الفيلسوف، حيث التطور السياسي والاجتماعي، ففي نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس (ق. م) شهد المجتمع اليوناني تطورات خطيرة في شتى المجالات، ولذا أعقب ذلك تجديد في القيم الفنية والأخلاقية؛ حتى تواكب هذه التغيرات. ففي أول هذه المراحل كان الإنسان صاحب فن واقعي؛ إذ كان ملاحظا دقيقا للطبيعة، وناقلا دقيقا لها، فقد تغنَّى "هوميروس" بالجمال في "الإلياذة"، وكذلك "هزيود" في القرن الثامن (ق. م) تغنى بالجمال الخارجي، فكانت الطبيعة عند "هوميروس" هي ينبوع الجمال عنده، وكانت المرأة هي ينبوع الجمال عند "هز يود"(٤٦)

ثم تطور الأمر واكتشف الإنسان الزراعة، وتربية الحيوان، وارتبط بالفن فيه بوجهة نظر دينية، والاعتقاد في وجود النفوس والآلهة، وعني بإقامة الطقوس لعبادتها.

وها هو "فيثاغورس" رياضيّ وموسيقيّ؛ اعتبر العدد جوهرَ الأشياء، وأن معرفة الأعداد-في تركيبها وتناسقها- تعود إلى معرفة العالم في ماهيته وقوانينه؛ فقد وضع – لأول مرة- معيارًا صوريًّا للجمال، فهي جمالية مثالية، تقوم على العقل.(٤٧)

وقد جعل "سقراط" للفن وظيفة تخدم الحياة الإنسانية والأخلاقية، وأن الجمال جمال هادف؛ إذ إن الجميل –عنده- هو ما يحقق النفع أو الفائدة أو الغاية الاخلاقية العليا، فقد حكم على الفن بمعيار أخلاقي مرجعه إلى الذات العاقلة، أو الضمير الباطني في نفوس البشر.(٤٨)

---

(٤٥) غادة المقدم عدره: فلسفة النظريات الجمالية، جرُّوس برس، ط: الأولى ١٩٩٦م، طرابلس-لبنان، ص: ٣٢-٣٤.

(٤٦) انظر: المرجع السابق، ص: ٤٨، وأميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال-نشأتها وتطورها، دار الثقافة الفنية- القاهرة ١٩٨٤م، ص: ١٣.

(٤٧) أميرة مطر: فلسفة الجمال، ص: ١٩، ومصطفى عبده: مدخل إلى فلسفة الجمال، ص: ٥٠.

(٤٨) أميرة مطر: فلسفة الجمال، ص: ٢٦، ومصطفى عبده: مدخل إلى فلسفة الجمال، ص: ٥١، وغادة المقدم: فلسفة النظريات الجمالية، ص: ٤٥.

وكان من نواة المذهب السقراطي المذهب الأفلاطوني، والذي اشتهر بمحاوراته في "الجمهورية" وشعره، فقد تمثَّل الجانبَ الأخلاقي عنده في نظرية: "المُثُل" وعالم الماهيات المفارقة للمادة، والخير الأسمى، وهو مصدر الوجود والكمال. كما حرص "أفلاطون" على الإبقاء على الحياة الحسية، مع إخضاعها للعقل، فالخير الأقصى في معرفة المثل في ذاتها، لا لغاية ولا منفعة، ثم في تأمل المُثُل، وهي تكشف عن نفسها في عالم الحس، مع حب وتقدير لكل ما هو جميل ومتسق، ثم في التزوُّد بالعلوم والفنون، والتمتُّع بلذات الحس البريئة النقية، مع استبعاد الدنيئ الخسيس منها.(٤٩)

وقد بدا هذا واضحا في كتاب "أفلاطون" "الجمهورية"؛ حيث تصوُّره للمدينة المثالية الفاضلة، واهتمامه بالجمال الحسي والعقلي والأخلاقي، فجاءت فلسفته الجمالية متعلقة تعلقًا شديدًا بعالم آخر غير عالم الكون والفساد، فيه تتحقق قيم الحق والخير والجمال(٥٠)

فالشيء الرائع-عند "أفلاطون"- هو هذا العالم الأبدي اللامتغير المثالي، فهو جميل ورائع في كل الأوقات، وهو مختلف عن المحسوس والملموس.(٥١)

أما "أرسطو" فقد تميز عن أستاذه "أفلاطون"؛ حيث جاءت فلسفته عقلانية محكومة بالواقعية، بعيدة عن خيال "أفلاطون" وطابعه المثالي، وكذلك تميز بترقية الفنان من الجزئي إلى الكلي من الحقائق، من خلال المشاهدات الجزئية، وهذا ما نفاه "أفلاطون" من عدم قدرة وصول الفنان إلى الحقائق الكلية أو جواهر الأشياء، فيرى في الفنان الإنسانية كلها، فالفن –عنده- محاكاة للطبيعة، وهي محاكاة للشيء الكُلِّي في فرد، فهو نسخة للأصل، لا للظل، كما اعتقد بذلك "أفلاطون".(٥٢) فالفن –عنده- يقوم على الإبداع واستخلاص الكُلِّي من الجزئي، ولم يختلف "أرسطو" عن "أفلاطون" في تأكيده لأهمية الفنون الجميلة في التربية والإرشاد إلى الخير والفضيلة. إلا أنه اختلف عن "أفلاطون"

---

(٤٩) توفيق الطويل: فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها، ط: التاسعة ١٩٩١م، دار النضهة العربية-القاهرة، ص: ٨٧.

(٥٠) أميرة مطر: فلسفة الجمال، ص: ٢٩، ومصطفى عبده: المدخل إلى فلسفة الجمال، ص: ٥٧.

(٥١) غادة المقدم: فلسفة النظريات الجمالية، ص: ٥٤، ومحمد علي أبو ريان: فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، المعرفة الجامعية-الإسكندرية، ط: الثامنة ١٩٩٣م، ص: ١٠- ١١.

(٥٢) غادة المقدم: فلسفة النظريات الجمالية، ص: ٥٩، نقلا عن تلخيص كتاب الشعر لأرسطو، الفصل الثالث، لخصه ابن رشد، حققه: د. تشارلس بروت، ود. أحمد هريدي، الهيئة المصرية ١٩٨٦م، ص: ٥٣.

في تفسيره لطبيعة اللذة الجمالية؛ إذ رأى "أرسطو" في هذه اللذة تصفية للانفعالات الضارة بالنفس، وتنظيمًا للمشاعر المضطربة. في حين خلط "أفلاطون" بينها وبين الوجدان الصوفي، أو اللذة الحسية، فالفنان المُلهَم هو القادر على رؤية المثل، أما الفنان السيئ فهو المحاكي للعالم الحسي المثير للانفعالات الضارة باتزان النفس.(٥٣) ولذا قال مقولته: "ينبغي أن نفضل المستحيل المحتمل على الممكن الذي لا يقبل التصديق."(٥٤) ما يؤكد تأكيده على الواقع المُعاش.

وبعد خمسة قرون-تقريبا، بعد "أرسطو"؛ يأتي "أفلوطين"، ويعرف الجمال بأنه موضوع محبة النفس؛ لأنه من طبيعتها، وهو ينتمي إلى عالم الحقائق العقلي، فهو – بطبيعته- أقرب إلى النفس منه إلى طبيعة المادة.

وفي ذلك يقول: "عندما تصادف النفس ما هو جميل تندفع نحوه؛ لأنها تتعرف عليه، إذ إنه من طبيعة مشابهة لطبيعتها. أما حين تصادف القبيح فإنها تنصرف عنه، وتنكمش على نفسها؛ لأنه مغاير لطبيعتها."(٥٥)

لذلك يرى "أفلوطين" أنه كلما تشكل بحسب فكرة معقولة صار أجمل، فالجميل هو المصوَّر، والقبيح ما يخلو من الصورة المعقولة، والبرهان على ذلك: أنه لو قُورِن بين حجرين، أحدهما نُحِت على صورة إنسان أو إله، وتُرك الآخر بغير شكل أو صورة معقولة؛ فالملاحظ أن الأول سوف يتفوَّق على الآخر في القيمة الجمالية، فالجمال يصدر عن الصورة أو المثال الذي ينتقل من المبدأ الخالق إلى مخلوقه، فهو مستمد من عالم المعقولات؛ لأن الطبيعة تحاكي النماذج العقلية أو المثل على حد قول "أفلاطون"، فعلى الإنسان إذا ما أراد بلوغ الكمال في عمله أن يطهر نفسه حتى تكتشف هذه المُثُل العقلية، التي هي موجودة بباطنه، والتي تصله بالعالم الإلهي الخالد. يقول في ذلك: "تصير النفس جميلة بقدر ما تتشبه بالله."(٥٦)

فعند "أفلوطين" تأتي نظرية "الفيض" والفكر الصوفي، وكون الجمال في داخلنا، فهو

---

(٥٣) أميرة مطر: فلسفة الجمال، ص: ٥٨.

(٥٤) المرجع السابق، ص: ٦٣.

(٥٥) أميرة مطر: فلسفة الجمال، ص: ٧٩، ومحمد علي أبو ريان: فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، ص: ١٩.

(٥٦) أميرة مطر: فلسفة الجمال، ص: ٨٠.

جمال روحي وجداني عن طريق الحدس.(٥٧)

وهنا يظهر تأثير فلسفة "أفلاطون" في فكرة "عالم المُثُل"، وعزوف "أفلوطين" عن الحياة المادية، حتى انتهى به الأمر إلى تشبيه الجمال بالنور الباطني، الذي تستضيئ به النفس، ثم تضيئ به كل شيء، فقد جمع بين التجربة الصوفية والتذوق الجمالي، بل جعل حتى تجربة التأمل الصوفي غاية التجربة الجمالية، فالجمال الروحي هو الجمال الأسمى والخير الأقصى عند "أفلوطين".(٥٨)

وقد وجد أثر هذا الفكر الصوفي اليوناني عند شعراء وفلاسفة الصوفية المسلمين في الحديث عن: المخيلة، والخيال، والإلهام الإلهي، والحدس، والفيض، والإشراف الإلهي، والتجلِّي-كما هو عند ابن عربي وجلال الدين الرومي ورابعة العدوية، وابن الفارض والحلاج والتوحيدي وابن الدباغ وغيرهم.(٥٩)

وهكذا ظلت أفكار "أفلاطون" و"أرسطو" و"أفلوطين" المرجع لكل من تكلم في الفن والجمال من أمثال: الرواقية، والأيبقورية، وفلاسفة العصور الوسطى، والفلسفة الإسلامية.

وقد كان الفن-في هذه الحقبة الزمنية- خادمًا للدين، مرتبطًا به أشد الارتباط، وجُعِل الفن وسيلة من وسائل تدعيم القيم الدينية والأخلاقية، كما ظهر ذلك كثيرا في فلسفة القديس "توما الأكوني" و"أوغسطين".

وقد ظهر الفن الجمالي في العصور الإسلامية، حيث زُيِّنت القصور والمساجد والمصاحف بأنواع مختلفة من الزخارف والأشكال الفنية، وقد اشتهر عدد من الفلاسفة المسلمين بالاهتمام والعناية بالفن، كـ: "ابن سينا"، و"الفارابي"، "أبن طفيل"، و"ابن باجة".....

أما في العصر الحديث، فقد اتجهت الفلسفة الحديثة إلى نشأة علم خاص بالظواهر الجمالية، تماشيًا مع النزعة العلمية المعاصرة التي تتجه تدريجيا إلى تبنّي النظرة الوضعية المخلصة من التأويل الفلسفي في تناولها لظواهر الكون والإنسان. فأرادوا أن

---

(٥٧) مصطفى عبده: مدخل إلى فلسفة الجمال، ص: ٥٨.

(٥٨) أميرة مطر: فلسفة الجمال، ص: ٨٢.

(٥٩) كما سيتضح ذلك في الحديث في هذا البحث عن صورتين من صور الجمال عند صوفية المسلمين.

يخضعوا النظريات الجمالية للمنهج التجريبي كالعلوم الطبيعية، والكونية، مع كون ظاهرة الجمال تستند –أصلًا- إلى الذوق، وهو ذو طابع فردي بحت، بقطع النظر عن السياق البيولوجي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو التاريخي. فالتذوق الفني عملية نفسية ووجدانية مرتبطة بالموضوع الجمالي وإحساس بالجميل.(٦٠)

فالتذوق تعاطف مع الموضوع لإدراك معناه، والكشف عن ثرائه الفني، ومدى ما يتكشف فيه من اتحاد بين الشكل والمحتوى، أو بين المادة والصورة.(٦١)

ويعد "بومجارتن" أول من استخدم "علم الجمال" بمعنى "فلسفة الجمال" عام ١٧٣٥، وأول من أطلق عليه اسم "استاطيقا" كاسم خاص بعلم الجمال، وأن غاية "الاستاطيقا" هي تحديد: ما هو الجمال؟ وقد أطلق هذا الاسم على علم الجمال في النصف الأخير من القرن الثامن عشر. وأصل الكلمة يوناني إغريقي، تعني "الجمال"، ثم تطورت إلى أن أصبحت تعني "علم التعرُّف على الأشياء من خلال الحواس". فـ "الاستاطيقا" فرع خاص بدراسة الحس والوجدان.

وقد قصد إلى ربط تقويم الفنون بالمعرفة الحسية، وقد جعل "بومجارتن" مهمة علم الجمال بوصفه علما فلسفيا التوفيق بين ميدان الشعور الحسي وميدان الفكر العقلي، ومن ثم التوفيق بين حقيقة الشعر والفن من ناحية، وحقيقة الفلسفة من ناحية أخرى. وهذا التوفيق يتخذ شكل توسيع الفلسفة بفضل علم الجمال. وقد أدرج "بومجارتن" المعرفة الحسية التي لا يمكن ردها إلى المنطق في داخل نظام للفلسفة، وأراد بهذا أن يوجد للمعرفة الحسية "أورجانون" خاصًا بها، يناظر "أورجانون" المنطق الذي أبدعه "أرسطو".(٦٢)

وقد شهد القرن الثامن عشر في انجلترا تقدما ملحوظا في البحث الفلسفي في الجمال، وأظهر من ساهموا في هذا التقدم في انجلترا "شافتسبري" (١٧١٣م) بفلسفته الجمالية في الأخلاق، وفي أسكتلنده "بيرك" و"هيوم" بأبحاثهما السيكولوجية في الجمال.... وغيرهم ممن شاركوا في علم الجمال.

---

(٦٠) محمد أبو ريان: فلسفة الجمال، ص: ٥٤، ٨٧.

(٦١) محمد أبو ريان: فلسفة الجمال، ص: ٩٩.

(٦٢) عبد الرحمن بدوي: ملحق موسوعة الفلسفة، ص: ١٠٧.

* * *

الفصل الثاني

القِيَم الجماليَّة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة

التأصيل الإسلامي لفلسفة الجمال

في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة

توالت الدراسات وتنوعت في الجمال، حيث إن "الجمال"-كما سبق إيضاحه- مسألة فطرية متأصلة في أعماق النفوس البشرية، حتى إن الطفل يميل إلى كل ما هو جميل، وينفر مما هو قبيح. ولا يوجد خلاف بين البشر على حب الجمال، والرغبة فيه. والجمال قد يكون حسيًّا ملموسًا، وقد يكون روحيًّا معنويًّا، ومنه جمال الشكل والمنظر، وجمال الطبيعة، وجمال الصوت، والبيئة، والملبس.....إلخ.

والتذوق الجمالي ليس خاصًا بعصر دون عصر، ولا فئة دون أخرى، بل هو ظاهرة عامة بين الناس جميعا، حيث هو استجابة وجدانية لمؤثرات الجمال الخارجية، وانفعال الإنسان وتأثره بالمواقف. وقد كان للإسلام الحظ الأوفر في القيم الجمالية؛ فقد جاء القرآن الكريم والحديث الشريف حاثَّيْن على رؤية الجمال، والتمتُّع بجماليات الوجود-ما لم يتعارض ذلك مع مبدأ رئيس في الدين، وهو التوحيد الخالص.

والجمال قيمة عليا جاء الإسلام بالدعوة إليها والترغيب فيها؛ لترقى بها المشاعر، وتتهذب بها النفوس، فتتدفق بالخير والعطاء.

والجمال سمة واضحة في مخلوقات الله تعالى، فحيثما اتجه الإنسان ببصره يجد من صنع الله سبحانه ما يجذبه بلونه، أو يستهويه بصوته، أو يأسر قلبه بدقته وتوازنه وإبداعه.

والجمال-في التصور الإسلامي- حقيقة تأخذ أبعادها كعنصر له من الأصالة والأهمية والرعاية ما لغيره من الحقائق الأخرى، عنصر روعي اعتباره ووجوده في أصل التصميم؛ ولذا فهو ليس في بناء الإسلام من باب التوافق والتحسينات التي يمكن الاستغناء عنها، بل من الضروريات؛ حيث امتلاء المسلم بالشعور المفعم بالحياة، والذي يعد ثمرة الجمال ضروري للغاية؛ لأنه يساعده على تحقيق غاية وجوده، والمتمثلة في عبوديته لله تعالى، ومن ثم تحقيق خلافة الله تعالى في الأرض، ونشر العدالة والأمن بين الناس جميعا، وبناء الحضارة الإنسانية.

وحين يؤثِّر الجمال في المسلم داخليًّا يجعل سلوكه قائما على أساس من رقة الإحساس، والذوق، والأخلاق الفاضلة، فيكون هدفه في الحياة متجهًا إلى مصلحة كل ما في الكون من مخلوقات الله عز وجل. ومن ثم كانت دعوة الإسلام إلى تنمية الذوق الجمالي. فالكتاب والسنة يربّيان الفرد على حب الخير، وعلى الذوق الجمالي، والإحساس والإبداع، وعلى الجمال الخُلقي والاجتماعي.

أولا- القيم الجمالية الحسية في القرآن الكريم:

جاء القرآن الكريم منهج لحياة المسلم –في مستوياتها المختلفة؛ ليحُثَّ الفرد على المشاركة الإبداعية في الحضارة الإنسانية. ولقد كان العنصر المحرك لهذا الإبداع لغة القرآن الكريم، ومضمونها، وآياتها التي تحث على النظر والتأمل والتعقل والتفكر والتدبر في الكون؛ لاستكناه جماله؛ للوصول إلى محبة مبدع هذا الجمال. والله "سبحانه" جميل، وله الجمال المطلق التام، وكل ما في الكون من جمال هو منبثق من جمال الله تعالى، فهذه السماء مزينة بكواكبها ونجومها، والأرض بأشجارها وأنهارها وألوانها وطيورها، وأعلى من كل هذا: جمال خلق الإنسان. قال تعالى: [لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾](٦٣) وقال في آية أخرى[ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ](٦٤)

وفي التعبير بلفظ "أحسن"-كما يقول العلماء- ليفيد الشمول والعموم، ويوضح مقصد التحسين والتجميل. أي: خلقه في تناسق وانتظام في الأعضاء، وفي أحسن شكل وحسن تركيب. وكلمة "تقويم"-كما يقول الإمام القرطبي- تشير إلى الجمال المعنوي للإنسان، فهنا شمولية للجمال المادي والمعنوي، وتنسيق يجعل من الإنسان نموذجا رفيعا للجمال بين سائر المخلوقات.(٦٥)

وقد خلق الله سبحانه كل شيء في الكون على أكمل وأجمل وجه، والقرآن الكريم إذ

---

(٦٣) التين: ٤.

(٦٤) المؤمنون: ١٤.

(٦٥) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية- القاهرة، ط: الثانية ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م، ج: ٢٢، ص: ٣٦٨. وحنان بنت عطية الطوري الجهني: القيم الجمالية وتنميتها بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي، الرياض، مكتبة الرشد، ط: الأولى ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، رسالة دكتوراه، ص: ٧٨.

يهدي للتي هي أقوم، فهو إنما يهدي الإنسان (خيالًا، وإحساسًا، وفكرًا) إلى ما هو أجمل، وذلك على اعتبار أن الأجمل هو الأقْوَم من حيث قيمته في ذاته بالنسبة للغير، ومن ثم، فإن الإحساس بالجمال هو إحدى القيم الإنسانية الكبرى التي عمل القرآن الكريم على تزكيتها وإحيائها؛ حتى يستقيم أمر الوجود الإنساني.

فالإحساس بالجمال له ماهية قرآنية، لا نظير لها بين فلسفات المفكرين، وأن القرآن الكريم يجسد الشمول بآفاقه ومظاهره في الكون والحياة والفكر والشعور، بحيث يعطي فكرة كاملة متكاملة في مقوماتها في الإحساس بالجمال. فالمشهد القرآني يحرك الكيان الإنساني نحوه، فيتحرك خيال الإنسان مع مناظره، ويلحقه في تحركه فكره وشعوره، يخالجه في أثنائها شعور بانفعال عال على رتابة الحياة العادية، فهو نص مقدس له قيمته التصويرية والتعبيرية ووسائله الفنية في التأثير والإلهام، وله طرائقه في التجسيد واستخدام الخيال، وله أسسه الفنية في استخدام الحروف والكلمات والعبارات والتنسيق بين الجمل والتراكيب.(٦٦)

من تلك الآيات الكثيرة في القرآن الكريم: قوله سبحانه [وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ }(٦٧)

ومما تجدر الإشارة إليه –هنا- أن في التعبير بـ "الأنعام" تلبية لضرورة الركوب، وفي الوقت ذاته تلبية لحاسة الجمال في الزينة، وهذه اللفتة القرآنية لها قيمتها في بيان نظرة الإسلام الإيجابية للحياة، وهذا هو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي تحدث فيه عن الجمال الحسي بلفظ "الجمال" الصريح، إلا أن هناك آيات عدة تحدثت عن الجمال الحسي بغير لفظه.(٦٨)

وأيضا قوله: [وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨ }(٦٩)

ثم إن القرآن الكريم يلفت النظر –في كثير من آياته- إلى أثار الجمال، منها قوله

---

(٦٦) حنان الجهني: القيم الجمالية، ص: ٦٥- ٦٧.

(٦٧) النحل: ٥- ٦.

(٦٨) المرجع السابق، ص: ٧٨.

(٦٩) النمل: ٨٨.

سبحانه: [قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾}[٧٠]

فالجمال عنصر مقصود في تصميم هذا الكون؛ لذا كانت آيات التنبيه والإيقاظ الكثيرة في آيات الكون وجمال الطبيعة؛ ليستشعر من ورائها القدرة الإلهية.[٧١]

ومنه (أي الجمال الحسي)-أيضا- جمال واعتدال التشريع الإسلامي، والربط بين قِيَم العبادة وقِيَم الجمال. قال تعالى: [۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ][٧٢]

ومنها قوله: [وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ} [٧٣] [إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ [٧٤] [وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا}[٧٥]

فَصُور الجمال-في الكون- عديدة، يصعب حصرها هنا، من ذلك: جمال السماء، والأرض؛ والزرع، والثمار؛ والجبال، والأنهار؛ وجمال الحركة الدائمة في الكون بأمر الله؛ جمال الطعوم، والقدرة على التذوق؛ جمال الإبل، والبغال، والحمير، وأن فيها زينة؛ جمال الماء العذب. كذلك من مظاهر اهتمام الإسلام بالجمال: أن الله "تعالى" ما بعث نبيًّا إلا على هيئة وصورة حسنة؛ وذلك لتمام التأثير في الناس، وعدم الإعراض عنهم، يدل على ذلك ما ورد-في السنة- عن جمال سيدنا إبراهيم عليه السلام، ويوسف، وآدم وموسى عليهم السلام.

وها هو "بديع الزمان النورسي" عند نظرته للآية الكريمة [أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ}[٧٦] بما فيها من إظهار للحكمة والإتقان كسمة على الإبداع الإلهي، فيقول: "أن تِزَيُّنًا دائما، وتجميلًا لطيفًا، وتنظيمًا دقيقًا-لا يمكن إحالته

---

(٧٠) البقرة: ٦٩.

(٧١) عبد الله بن محمد العمرو: معايير الجمال بين الرؤيتين: الإسلامية والغربية، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مجلة العلوم الشرعية، العدد ٣٨، عام ١٤٣٨هـ، بحث منشور، ص: ٤٤٨-٤٤٩.

(٧٢) الأعراف: ٣١.

(٧٣) الملك: ٥.

(٧٤) لصافات: ٦.

(٧٥) النحل: ١٤.

(٧٦) ق: ٦.

على المصادفة؛ يهيمن عليها مما يبين القصد والإرادة ويشعر بالعلم والحكمة."[٧٧]

فقد سيقت هذه الآية دليلًا من أدلة الاستدلال على وجود الله تعالى، وعلى كمال قدرته، وبديع صنعته.

كما لفت القرآن الكريم إلى مدى تأثير الألوان في النفوس، فقال: [أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ][٧٨]

ففي ذلك دعوة للقلب والعقل لتحقيق المثالية الواقعية، وهو حديث العلم والمعرفة، واكتشاف الآفاق باستخدام الألوان المختلفة.[٧٩]

وكثيرا ما يستخدم القرآن الكريم الحديث عن النِّعم في الكون، ويُعددها؛ حتى ينشرح الصدر، وتتهذب النفوس، كما أنه استخدم الجمال في التدليل على قضايا العقيدة، ففيها إيقاظ الأفئدة من غفوتها؛ حتى تثوب إلى فطرتها الصافية، ويحررها من الجمود والتحجر. ولذا وجَّه الله الانتباه إلى الحواس (السمع – البصر – الفؤاد) باعتبارها المنفذ الأول الذي يعبر الجمال منه إلى النفس والفكر؛ فالسمع وسيلة الإحساس بالأصوات، وتذوق جمالها، والبصر مجاله الأوسع في ميدان الجماليات.[٨٠]

ثانيا- القيم الجمالية المعنوية في القرآن الكريم:

لم يقتصر العرض القرآني على النواحي الحسية الظاهرة للجمال، بل لقد اشتمل – أيضا- على صور شتى للجمال المعنوي الباطني، ويقصد بالجمال الباطني: النشاط العقلي والروحي، وما ينتج عنهما من فكر وأشواق وسلوك وتصور.[٨١]

وقد جاء الجمال المعنوي في القرآن الكريم مقرونًا بأنماط شتى من السلوك البشري،

---

[٧٧] بديع الزمان النورسي: الشعاعات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل-القاهرة، ط: الأولى ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ص: ٨٧.

[٧٨] فاطر: ٢٧- ٢٨.

[٧٩] وحيد حرحوز: الذوق والجمال في القرآن الكريم، رسالة ماجستير-جامعة الجزائر-كلية العلوم الإسلامية ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م، ص: ٥٩

[٨٠] صالح الشامي: الظاهرة الجمالية في الإسلام، ص: ١٧٧- ١٨٧.

[٨١] السابق، ص: ١٨٤.

فقد اقترن بالصبر، وبالصفح، وبالهجر، وبسراح المرأة من عصمة الزوجية.

والصبر الجميل هو الذي تزدان النفس فيه باليقين والثقة في الله، وتمتلئ بالأمل، ويغمرها الرجاء في الله تعالى. ويكون الصبر جميلا إذا أحدث نوعًا من التوازن النفسي الذي لا يجتمع مع الغضب، ولا يتقاعس –في الوقت ذاته- عن إزالة ما رُمي به المرء من ضَير.(٨٢)

ولذا، جاء الصبر الجميل في مواضع عدة في القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: [وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ](٨٣) ومنها: [فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا](٨٤)

والصفح الجميل. فالصفح-في حد ذاته- جميل، وعندما يتصف بالجمال يكون صفحًا لوجه الله تعالى، لا عتاب فيه.

وكذلك يعطى القرآن الكريم بُعْدًا جديدا للسلوك الإنساني؛ حين يجعل في الهجر والسَّرَاح-اللذين هما لون من المُقاطعة- جمالا، فهو الهجر الذي لا انتقام فيه، ولا أذى معه، ولا خيلاء. قال تعالى: [وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا](٨٥)، **والسراح الجميل** في غير غبن، ولا قهر، ولا انتقاص للحقوق، وبعيدا عن العدوان والظلم. قال تعالى: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا](٨٦)(٨٧)

ومن الجمال المعنوي: لباس التقوى، وقد جعله الله خيرًا وأكمل من اللباس الظاهر. قال تعالى: [وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ](٨٨)، ومن الجمال المعنوي: جمال الأخلاق الحسنة. وجمال الخلق دليل على سلامة العقيدة، وطيب المعدن، وأصالة المنبع.

---

(٨٢) محمد عبد الواحد حجازي: الإحساس بالجمال في ضوء القرآن الكريم، مجلة المعارج-بيروت، عام ١٤١٣م، ج: ٩، ص: ٩٥

(٨٣) يوسف: ٨١.

(٨٤) المعارج: ٥.

(٨٥) المزمل: ١٠.

(٨٦) الأحزاب: ٢٨.

(٨٧) محمد حجازي: الإحساس بالجمال في ضوء القرآن الكريم، ص: ٩.

(٨٨) البقرة: ١٩٧.

والاختلاف في الجمال إنما يكون –في الغالب- في الجمال الحسي والمدركات الحسية، وذلك تحت تأثير العادات والأعراف، وتأثير البيئة. يقول المولى سبحانه: [أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ][٨٩]

ومن صور الجمال المعنوي الذي حفل به القرآن الكريم: ما عرضه القرآن من صورة جمالية رفيعة لنور الله "تعالى"، تأخذ بالألباب، في قوله سبحانه: [اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] والتي توضح أن كل ما في الكون من نور هو من نوره تعالى، هو خالقه، وموهبه، وهاد إليه.

ومن صوره-أيضا: جمال قوة الحجة، ونصاعة الجدل. وكذلك التقابل الذي بين أثر الكلمة الطيبة والشجرة الطيبة، وأثر الكلمة الخبيثة والشجرة الخبيثة. وجمال إقامة العدل [إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ][٩٠]

وكذلك جمال المقارنة بين الأضداد، وهو كثير في القرآن الكريم، كالمقارنة بين: النور والظلمة، والهداية والإضلال، والكفر والإيمان، والحق والباطل، والحياة والموت.....إلخ.[٩١] وجمال القول بالحسنى والأحسن، وكافة العلاقة الإنسانية.

وخلاصة القول في ذلك: أن القرآن الكريم قد سبق علماء الغرب في العناية بالجمال، وأسسه نظرياته، وإن لم تكن منظرة مُعنونة تحت اسم "علم الجمال"، لكنه كتاب حوى الجمال كله، والذوق كله-ظاهرا وباطنا: جمال الفكر، وجمال التشريع، مع جمال القول والبيان، والتربية على الجمال.

ثالثا- القيم الجمالية في السنة النبوية:

كان منهج النبوة الذي تجسد في سلوك الرسول "ﷺ" في خاصة نفسه، ومع أهله،

---

[٨٩] فاطر: ٨.

[٩٠] النحل: ٩.

[٩١] راجع للمزيد: المراجع السابقة في هذا البحث.

وفي تشريعه للناس؛ البيان العملي، والممارسة التطبيقية للبلاغ القرآني الذي شرع الله تعالى فيه منهج الإسلام. فهذا الرسول الذي جاء رحمة للعالمين كان النموذج الأرضي للإنسان الذي يستشعر كل آيات الجمال في خلق الله تعالى، ويلفت النظر بسلوكه الجمالي ليغدو سنة متبعة في مذهب الإسلام وحضارة المسلمين.

يقول الدكتور صابر عبد الدايم: "الحديث النبوي الشريف مفعم بأسرار الجلال والجمال والكمال، هو المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، فالكتاب والسنة منبعا حياة المؤمن، وهما منطلق التصور الإسلامي لكل مجالات الحياة والفكر والاعتقاد: قولًا وسلوكًا ودستورًا وحياةً."

ويقول في موضع آخر: "ومن خصائص الجمال وسماته في الحديث النبوي: أنه ينأى عن المحاجة العقلية الباطلة، وأنه يجادل الخصم بما يعرف، ويأتي إليه من جهة فهمه؛ حتى يكون الإقناع أكثر تأثيرا في النفس."(٩٢)

والجمال في السنة النبوية، كما هو في القرآن الكريم؛ يشمل الجمال الظاهري والباطني، أما الجمال الباطني فهو المحبوب لذاته، وهو جمال: العقل، والعلم، والشجاعة، والمروءة....

وهذا الجمال الباطني يزين الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذات جمال، فتكسو صاحبها الجمال والمهابة بحسب ما اكتست روحه من تلك الصفات.

وأما الجمال الظاهري فهو زينة خص الله بها بعض الصور عن بعض، وهي من زيادة الخلق. والقلوب مطبوعة على محبة الجمال، كما هي مفطورة على استحسانه.(٩٣)

وقد اهتمت السنة النبوية بالجمال عامة، كاهتمام القرآن الكريم، ومن ذلك: الدعاء المأثور عنه "ﷺ": ((اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر....."(٩٤) فالمنظر القبيح أمر غير مرغوب فيه، وذلك لفقدان جانب الجمال فيه.

وخطب المغيرة بن شعبة امرأة فأخبر النبي "ﷺ" فقال له: ((اذهب، فانظر إليها؛ فإنه

---

(٩٢) د. صابر عبد الدايم: الحديث النبوي رؤية فنية جمالية، د. ط، دار الوفاء-الإسكندرية ١٩٩٩م، ص: ١١، ٤٧.

(٩٣) حنان الجهني: القيم الجمالية وتنميتها، ص: ١٢٨.

(٩٤) راواه مسلم في صحيحه، ج: ٢، ص: ٩٧٨، حديث رقم: ١٣٤٢.

أحرى أن يؤدم بينكما.))[٩٥]

كما بينت السنة اهتمام الإسلام بجمال الهيئة واللباس مع عدم الكبر، من ذلك: حديث عبد الله بن عمر "رضي الله عنهما" أن النبي "ﷺ" قال للذي سأله عن حبه لجمال ثيابه وشراك نعله: هل ذلك من الكبر؟ فقال "عليه الصلاة والسلام": ((لا، ولكن الله جميل يحب الجمال.))[٩٦]

كذلك حث الإسلام على المظهر الحسن؛ فهو مكمل لجماله الباطني، وعلامة عليه. من ذلك: قول النبي ﷺ: ((من كان له شعر فليكرمه.))[٩٧]

والنبي "ﷺ" هو الأسوة والقدوة في كل شيء، فكان متمثلا بالجمال ظاهرا وباطنا، فكان النبي الكريم يحب البياض من الثياب، كما جاء عن أبي ذر "رضي الله عنه" أنه قال: أتيت النبي "ﷺ"، وعليه ثوب أبيض.[٩٨]

وأيضا في حديث البراء "رضي الله عنه" قال: كان النبي "ﷺ" مربوعا، وقد رأيته في حلة حمراء ما رأيت شيئا أحسن منه.[٩٩]

كل هذا وغيره مما يضيق به المقام –هنا- لاستيعابه؛ يتضح منه أن حياته "ﷺ" كانت تجسيدًا للجمال حسيًّا ومعنويًّا، وتأكيدًا أن الإسلام عقيدة وشريعة.

والجمال في الإسلام تدريب للذات والترقي من المحسوس إلى المعقول، ومن المتناهي إلى اللامتناهي، ومن الجميل إلى الجليل. وقد جاءت نظرة الإسلام للجمال متوائمة مع استعداد الفطرة الإنسانية، وهي وسيلة حيوية مؤثرة لتحقيق أهداف لصالح الفرد، وليس هدفا في حد ذاته، كما أنه عبارة عن ارتباط وثيق بين الشكل والفعل، والعمل في الظاهر والباطن.[١٠٠]

والفرد المسلم طاقة إيجابية في كل زمان ومكان؛ تحقيقا للخلافة في الأرض، وتمكينا

---

[٩٥] رواه الطبراني في المعجم الكبير، ج: ٢٠، ص: ٤٣٣، حديث رقم: ١٠٥٢.

[٩٦] رواه الطبراني في المعجم الكبير، ج: ٨، ص: ٢٤٥، حديث رقم: ٧٩٦٢. أخرجه مسلم في صحيحه باب: تحريم الكبر وبيانه، رقم: ٩١.

[٩٧] رواه أبو داود في سننه، ج: ٤، ص: ٧٦، حديث رقم: ٤١٦٣.

[٩٨] أخرجه البخاري، كتاب: اللباس، باب: الثياب البيض، حديث رقم: ٥٨٢٧.

[٩٩] أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: الثوب الأحمر، حديث رقم: ٥٨٤٨.

[١٠٠] راجع للمزيد: المراجع السابقة بهذا الفصل.

للأمانة التي حملها من عند الله تعالى. فعلى مدى تاريخ الفلسفة عنيت فلسفة الجمال بالبحث في مبادئ النقد الفني والإحساس بالجمال وإبداعه، وهي على صلة وثيقة بمبادئ المعرفة والسلوك الأخلاقي الإسلامي. والمتتبع لنتاج المفكرين الإسلاميين يجد أنهم قد تكلموا في الجمال، وكان لهم باع طويل في هذا المجال، غير أن هذه الكتابات كانت في مواضع مختلفة، وتحت عناوين متنوعة، ولم يفرد لها فصول منفردة، تحت مسمى "علم الجمال"، وإنما هي كتابات مبعثرة، بعضها مندرج في باب: الأخلاق، وأعمال القلوب، والحسن والقبح. ومنها ما ضمنوه في باب: الأحكام الفقهية، وأحكام الزينة. ومنهم من اعتبره من باب: الإشراق والتجلي والفيض من الله العلي القدير، وهم الصوفية.

وهذا ما سوف أتناوله –بشيء من التفصيل- في الصفحات التالية.

أولا- أبو حيان التوحيدي (مولده – نشأته – وفاته)

لقد حفل تاريخنا الإسلامي بعدد من العظماء، والنجوم الزاهرة، والعلماء الموسوعيين؛ الذين كانت لهم بصماتهم، وإيجابيتهم في عصرهم، ومن هؤلاء: "أبو حيان التوحيدي"، وقد كان أحد أولئك العلماء الأدباء الذين لاقوا في حياتهم بؤسً وشقاء، فقد ظل حياته يجاهد ويكافح في التأليف واحتراف الوراقة والنسخ، يقصد الأمراء والوزراء؛ لعلهم يكافئون علمه وأدبه، غير أنه لم يحظ بشيء.(١٠١)

اسمه هو: علي بن محمد بن العباس التوحيدي. أديب وفيلسوف لم تعرف عنه معلومات كافية، فعاصر رقي الحياة العقلية، وذروة الحضارة الإسلامية العربية، وإن يكن ذلك العصر نفسه قد شهد تفككا سياسيا تمثَّل في قيام دويلات متعددة مختلفة الأهواء، عمادها المذهب الديني والانتماء العرقي.(١٠٢)

وقد كان "التوحيدي" سيِّئ الطالع في حياته وبعد وفاته؛ لأنه عاش حياته فقيرا مهملا يشكو الفقر والعوز، ولم يلق إلا الإهمال من الوزراء الذين اتصل بهم. وقد طارده سوء الطالع حتى بعد وفاته؛ إذ أهمله المؤلفون، حتى جاء ياقوت الحموي فنوَّه بذكره في كتابه "معجم الأدباء"، ولفت الأنظار إليه، وعرف له فضله ومكانته، ووصفه وصفا يدل على

---

(١٠١) أبو حيان التوحيدي: الامتاع والمؤانسة، المقدمة، بقلم: أحمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م، ص: ١٣.

(١٠٢) د. حسين الصديق: فلسفة الجمال، ص: ١٥.

تقديره لعلمه. ومع ذلك لم يستطع ياقوت تقديم ترجمة لحياته، ما أدى إلى ظهور آراء عديدة حولها.(١٠٣)

وقد وصفه ياقوت بأنه "فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، ومحقق المتكلمين، ومتكلم المحققين، إمام البلغاء، فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة....."(١٠٤)

لُقِّب بـ "التوحيدي" نسبة لأبيه الذي كان يبيع التوحيد ببغداد، وهونوع من التمر بالعراق.(١٠٥)

وهناك رأي آخر يرى أنه لقب بذلك نسبة إلى التوحيد؛ لأنه ممن يقول بالعدل والتوحيد، وهم المعتزلة.(١٠٦)

وبناء على ذلك، فهو معتزلي المذهب على رأي البعض، ولكن المرجح أنه لم يكن معتزليا، بل كان خصما من خصوم علم الكلام، كما اتضح ذلك من خلال كتبه ومؤلفاته.(١٠٧)

أما عن أصله، فقيل: إنه شيرازي الأصل، وقيل: نيسابوري، وقيل: واسطي، قدم بغداد. ويرجح أنه فارسي الأصل. ويميل بعض الباحثين إلى القول بأن "التوحيدي" كان من أولئك الموالي الذين اختلطت فيهم الدماء والعناصر؛ فكوَّنت مزيجا غريبا، ومنهم من رجح عروبته؛ بناء على أنه ليس في مؤلفاته ما يشير إلى فارسيته، بل ربما يكون قد زار بلاد فارس. ويتأكد ذلك إذا ما علمنا أنه كان قد كتب رسالة (في العلوم) وجَّه الحديث فيها للفارسيين بقوله: "أصحابنا العجم"(١٠٨)

---

(١٠٣) المرجع السابق، ص: ٦٦. والحموي، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تحقيق: د. أحمد فريد الرفاعي، مطبوعات دار المأمون-القاهرة، ج: ١٥، ص: ٥

(١٠٤) الحموي: معجم المؤلفين، ج: ١٥، ص: ٥. د. زكريا إبراهيم: أبو حيان التوحيدي، المؤسسة المصرية العامة، الدار المصرية للتأليف والنشر-القاهرة، مطبعة مصر، ص: ٤.

(١٠٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة العربية المصرية-مصر، ط: الأولى، مجلد: ٤، ص: ١٩٧.

(١٠٦) ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، بيروت ١٩٧١م، ط: الثانية، مجلد: ٧، ص: ٣٨.

(١٠٧) د. حسين الصديق: فلسفة الجمال، ص: ٦٦.

(١٠٨) زكريا إبراهيم: أبو حيان، ص: ١٣- ١٥. ود. عبد الرحمن بدوي: مقدمة كتاب الإشارات الإلهية للتوحيدي، تحقيق: عبد الرحمن بدوي-القاهرة ١٩٥٠، ص: ج. والتوحيدي: رسالة في العلوم، ملحقة بكتاب: "الصداقة والصديق" تحقيق: د. إبراهيم الكيلاني= =دار الفكر-دمشق ١٩٦٤م، مطبعة الجوانب-القسطنطينية

وبِغَضّ النظر عن أصله، فهو-على كل حال- إنسان، مفكر، حاول أن يكمل نفسه- برغم ظروفه السيئة- بالعلم والدين والأخلاق، ويسعى جاهدا في سبيل العمل على ربط الحكمة النظرية بالحكمة العملية.

وقد لد "التوحيدي" ببغداد سنة ٣١٠ هـ (تقريبا) من أبوين فقيرين. ولا يوجد في كتب "التوحيدي" أية إشارة إلى أسرته؛ لكونه نشأ رقيق الحال من أسرة بسيطة، فلم يكن يجد داعيا للحديث عن نشأته وأسرته في كتبه.(١٠٩)

بيد أن بعضا من الباحثين قد نجحوا في استنتاج تاريخ مولده من إشارتين: **الأولى** منهما وردت في "المقابسات" وفيها يعترف "التوحيدي" بأنه قد جاوز العقد الخامس من عمره، وينص –في الوقت نفسه- على أنه ألف هذا الكتاب سنة ٣٦٠هـ. **الثانية** منهما وردت في الرسالة التي كتبها إلى القاضي "أبو سهل بن محمد" سنة: ٤٠٠هـ، يقول فيها: إنه قد بلغ عشر التسعين. فعلى ذلك يكون "أبو حيان" قد ولد –كما قال معظم مؤرخوا سيرته- في العشرة الثانية بعد الثلاثمائة، أي: حوالي سنة ٣١٠ أو ٣١١ هـ، على وجه التقريب.(١١٠)

ولا يوجد –وَيا لَلأسف!- أي مصدر قاطع عن طفولته وعن أسرته، ولا أية ترجمة تركها "التوحيدي" عن حياته، على غرار ما فعل "الغزالي" في "المنقذ من الضلال"، ولعل السبب في ذلك أن "التوحيدي" عاش طفولة معذبة، فمنعه حياؤه من الخوض فيها والحديث عنها.

إذن، لا يوجد تاريخ يجزم بتاريخ ولادة "التوحيدي"، ولكن هناك خبرا يذكر أنه أحرق كتبه سنة ٤٠٠ هـ، فلامه صديقه "القاضي أبو سهل" على ذلك، فكتب التوحيدي إليه رسالة يعتذر فيها عن ذلك.

١٣٠١هـ، ص: ٢٠١، ومقدمة كتاب التوحيدي "الإمتاع والمؤانسة"، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، المكتبة العصرية-صيدا-بيروت-لبنان، راجعه: هيثم خليفة الطعيمي، الدار النموذجية ١٤٣٢هـ، ج: ١، ص: ٧٣- ٧٤.

(١٠٩) د. زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، المكتبة التجارية الكبرى-القاهرة، ط: الثانية ١٩٣٤م، ج: ٢، ص: ١٣٣.

(١١٠) الحموي: معجم الأدباء، ج: ١٥، ص: ٢٠.

وقد استنتج السندوبي أنه توفي سنة ٤٠٣هـ تقريبا.([١١١])

وسبب حرقه كتبه في آخر أيامه: أنه لم يأخذ حقه في الدنيا رئاسة أو جاها، ولعل النسخ الموجودة –الآن- من بعض كتبه قد كتبت عنه في حياته، وخرجت من قبل حرقها، ولم يبق منها إلا القليل.([١١٢])

ومع كل هذه الظروف الصعبة وُجِد "التوحيدي" وقد اتجه إلى العلم والدرس، كما ولع بالتنقل والأسفار بين: بغداد، والري، ونيسابور، وشيراز، وغيرها. وقد كانت أسفاره كلها إما طلبا للعلم، أو بحثا عن الرزق.

وقد اشتغل التوحيدي بدراسة الفقه والحديث والتوحيد، ومسائل الفلسفة والمنطق واللغة والأدب وأخيرا التصوف.

ولم يكن اهتمامه بكل هذه المعارف سوى مجرد نتيجة لميله إلى الدهشة، ونزوعه نحو التساؤل، واستعداده للبحث، بالإضافة إلى هذا أن القرن الرابع الهجري الذي وجد فيه التوحيدي كان عصرا ثقافيا خصبا، ظهر فيه الكثير من النوابغ في: الفلسفة والأدب والمنطق وعلم الكلام.....كل هذا ساعد على تكوين هذه الشخصية الموسوعية، ومما جعل البعض يصف البعض التوحيدي بأنه "كان فيلسوفا مع الفلاسفة، ومتكلمًا مع المتكلمين، ولغويًّا مع اللغوين، ومتصوفًا مع المتصوفين."([١١٣])

لقد تردد التوحيدي على مجالس الوزراء من أمثال: المهلبي، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وبن سعدان، وكانت مجالسه لا تخلو من أحاديث أدبية ممتعة، وأشعار ونثر، ومناقشات فلسفية، وطرائف علمية مفيدة، وكتبه شاهد على ذلك.([١١٤])

فـ "التوحيدي" أديب متفلسف، تغلب عليه صفة الأديب، أما الفلسفة فهي-في الغالب- ما قام به من جمع لآراء معاصريه من الفلاسفة الذين اتصل بهم، ثم غلب عليه جانب

([١١١]) انظر مقدمة كتاب: "المقابسات" للتوحيدي، تحقيق: حسن السندوبي، المكتبة التجارية الكبرى-مصر-القاهرة ١٩٢٩م، ط: الأولى، ص: ٨، ١٨.

([١١٢]) مقدمة أحمد أمين كتاب الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي، ص: ١٤.

([١١٣]) مقدمة أحمد أمين لكتاب "الهوامل والشوامل" للتوحيدي، تحقيق: أحمد أمين وأحمد صقر، لجنة التأليف والترجمة-القاهرة ١٩٥١م، ص: د.

([١١٤]) زكريا إبراهيم: التوحيدي، ص: ٦- ٧.

التصوف؛ ملاذًا، وتعويضا عن إخفاقه في سعيه للوصول إلى الشهرة والمال.([١١٥]) .

* * *

([١١٥]) حسين الصديق: فلسفة الجمال، ص: ٧٢.

الفصل الثالث:

القيم الجمالية في فكر كل من:

"أبو حيان التوحيدي" و"ابن الدَّبَّاغ"

ويحتوي على مبحثين:

المبحث الأول: القيم الجمالية في كتابات أبي حيان التوحيدي.

المبحث الثاني: القيم الجمالية في كتابات ابن الدباغ.

المبحث الأول

القيم الجمالية في كتابات أبي حيان التوحيدي(١١٦)

(١١٦) أبو حيان التوحيدي: هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي، أديب وفيلسوف، لم تعرف عنه معلومات كافية، فعاصر رقي الحياة العقلية، وذروة الحضارة الإسلامية العربية، وإن يكن ذلك العصر نفسه قد شهد تفككًا سياسيًّا تمثل في قيام دولات متعددة مختلفة الأهواء، عمادها المذهب الديني والانتماء العرقي...وقد كان أحد أولئك العلماء والأدباء الذين لاقوا في حياتهم بؤسًا وشقاء، فقد ظل حياته يجاهد ويكافح في التأليف واحتراف الوراقة والنسخ، يقصد الأمراء والوزراء لعلهم يكافئون علمه وأدبه، غير أنه لم يحظ بشيء.
[راجع في ذلك: أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، المقدمة، بقلم: أحمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م، ص: ١٣، ود. حسين الصديق: فلسفة الجمال وسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي، دار القلم العرب ودار الرفاعي، ط: الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠م-سوريا-حلب، ص: ١٥.]
عاش التوحيدي فقيرا مهملا يشكو القفر والعوز، ولم يلق إلا الإهمال من الوزراء الذين اتصل بهم، وقد طارده سوء الطالع حتى بعد وفاته؛ إذ أهمله المؤلفون، حتى جاء ياقوت الحموي فنَّوه بذكره في كتابه "معجم الأدباء"، ولفت الأنظار إليه، وعرف له فضله ومكانته، ووصفه وصفا يدل على تقديره لعلمه، ومع ذلك لم يستطع ياقوت تقديم ترجمة لحياته، مما أدى إلى ظهور آراء عديدة حوله.
[الحموي (ياقوت الحموي): معجم الأدباء، تح: د. أحمد فريد الرفاعي، مطبوعات دار المأمون-القاهرة، ج: ١٥، ص: ٥.]
وقد وصفه ياقوت بأنه فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق المتكلمين، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء.....
[المرجع السابق، وزكريا إبراهيم: أبو حيان التوحيدي، المؤسسة المصرية العامة-القاهرة، مطبعة مصر، ص: ٤.]
لقب بـ (التوحيدي) نسبة لأبيه الذي كان يبيع التوحيد ببغداد، وهو نوع من التمر بالعراق.
[ابن خلكان: وفيات الأعيان، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة العربية المصرية، مصر، ط: الأولى، مجلد: ٤، ص: ١٩٧.]
أما عن أصله، فقيل: إنه شيرازي، وقيل: نيسابوي، وقيل: واسطي قدم بغداد، ويرجح أنه فارسي الأصل.
[زكريا إبراهيم: أبو حيان التوحيدي، ص: ١٣- ١٥، ود. عبد الرحمن بدوي: مقدمة كتاب الإشارات الإلهية للتوحيدي، سنة ١٩٥٠م، ص: ج، والتوحيدي: رسالة في العلوم، ملحقة بكتابه "الصداقة والصديق"، تح: د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر-دمشق ١٩٦٤م، مطبعة الجوانب-القسطنطينية ١٣٠١هـ، ص: ٢٠١، ومقدمة كتاب "الإمتاع والمؤانسة"، ص: ٧٣- ٧٤.]
ولد التوحيدي ببغداد سنة ٣١٠هـ (تقريبا) وتوفي سنة ٤٠٣هـ (تقريبا).
[د. زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، المكتبة التجارية الكبرى-القاهرة، ط: الثانية ١٩٣٤م، ج: ٢، ص: ١٣٣، وانظر: مقدمة كتاب "المقابسات" للتوحيدي، تح: حسن السندوبي، المكتبة التجارية الكبرى-مصر-القاهرة ١٩٢٩م، ط: الأولى، ص: ٨، ١٨.]
قام بحرق كتبه في آخر أيامه، ولم يتبق منها إلا القليل، تتلمذ على أعظم شيوخ عصره، من أمثال: أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني، والفيلسوف النصراني أبو زكريا يحيى بن عدي، وأبو سعيد السيرافي، وغيرهم. يعد رائد حركة الفلسفة الأدبية، أو الأدب الفلسفي في القرن الرابع الهجري.

يمثل الفكر الجمالي الإسلامي حلقة مهمة في تاريخ الفكر الجمالي الإنساني، وهو فكر غني ومتنوع. والظاهرة الجمالية-في هذا الدين- بناء متكامل، يشد بعضه بعضًا في تناسق وتنظيم بديع. إنها ليست فلسفة فردية استحسنها الآخرون فأضحت مذهبا، ولا مذهب مدرسة فكرية تعاونت العقول على إنتاجها؛ فأصبحت فلسفة مذهبية، إنها كيان قائم في ذاتية هذا الدين، تدخل في لحمته وسداه، تظهر من خلال التناسق والتنظيم، ومن خلال المواءمة والتعاون، فكل ما يأمر به الدين يوصل إلى الجمال.(١١٧)

وقد كان للمتصوفة الإسلاميين الحظ الأوفر في فلسفة الجمال؛ فقد حفلت كتبهم بعدد من القصائد –شعرا، ونثرا؛ حوت آراءهم الجمالية. وقد صاغ "التوحيدي" فلسفته في شكل أدبي وذوقي، وعلى شكل محاورات وتساؤلات وقصص، كما فعل الفيلسوف المغربي "ابن طفيل".

عاش "أبو حيان" عصرًا أدبيًّا غلبت عليه الجمالية اللفظية، والبديعية، والزخرفية، كما بدا ذلك في أسلوب "ابن عباد" و"الحريري" و"الخوارزمي"- من معاصريه. وكان للتوحيدي أسلوبه المتفرد كأستاذه الجاحظ، لكنه أُهمِل ولم يظهر بالشكل الكافي في عصره.(١١٨)

ولم يكن "أبو حيان" مجرد أديب عني بروائع الأشكال اللفظية، بل كان فيلسوفا يبحث عن الحقيقة، وقد ظهر هذا من خلال تساؤلاته في كتبه، فهو أول فنان وفيلسوف استطاع أن يقدم فلسفته الجمالية عن خبرة جمالية إبداعية، واستطاع –أيضًا- أن يلخص مفهوم فلسفة الفن عند العرب منذ القرن الرابع الهجري.(١١٩)

ويحدد "التوحيدي" أساسيات الأسلوب الجمالي عنده في كتبه العديدة، التي تبرز – بدورها- عن اهتمامه بالفن والجمال.

أصول فلسفة الجمال عند "التوحيدي"

[أحمد أمين: مقدمة كتاب "البصائر والذخائر" للتوحيدي-القاهرة ١٩٥٣م، تح: د. إبراهيم الكيلاني، مكتبة أطلس-دمشق، ص: ح.]

(١١٧) صالح الشامي: الظاهرة الجمالية في الإسلام، ص: ٣، ٢٥.

(١١٨) د. عفيف البهنسي: الفكر الجمال عند التوحيدي، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩، ص: ٤١.

(١١٩) المراج السابق، ص: ٤٢.

لقد اعتاد المفكرون والفلاسفة تمييز الإنسان بعقله وفكره، أما "التوحيدي" فقد أضاف ميزة أخرى وسمة جديدة تميز الإنسان عن غيره من الحيوان، ألا وهي: الحاسة الفنية الإبداعية، أو القدرة على تذوق الجمال، وذلك حين يعرف "الفن" فيقول –على لسان أستاذه "أبو سليمان السجستاني": "ذكر بعض الباحثين عن الإنسان أنه جامع لكل ما تفرق في جميع الحيوان، ثم زاد عليها وفضل بثلاث خصال:

بالعقل، والنظر في الأمور النافعة والضارة، وبالمنطق؛ لإبراز ما استفاد من العقل بواسطة النظر، وبالأيدي؛ لإقامة الصناعات، وإبراز الصور فيها مماثلة لما في الطبيعة بقوة النفس."(١٢٠)

وفي هذا النص استخدم "التوحيدي" اليد لإبراز الصورة الجميلة، وإبراز دور النفس في محاكاة الطبيعة. وهنا يأتي دور الإنسان الذي انفرد عن بقية الكائنات بتذوق هذا الجمال والإحساس به.

والأسس والشروط التي وضعها "التوحيدي" في الأسلوب البلاغي الأدبي قد وضحه في كتابه "البصائر والذخائر" بقوله: "وينبغي أن تعلم أن من أراد خطابة البلغاء على طريقة الأدباء، ومجاراة الحكماء على عادة الفضلاء؛ احتاج –ضرورة- إلى تقديم العناية بأصول الأساس، وحفظ فصول هي الأركان، ولن ينفعها تقديمها دون إحكامها، كما لا يجدي عليه حفظها دون عرفانها. فمن أوائل تلك العناية: جمع بدد الكلام، ثم الصبر على دراسة محاسنه، ثم الرياضة بتأليف ما شاكل كثيرًا منه....."(١٢١)

فهو يضع أمام نفسه شروطًا دقيقة، إذا استوفاها؛ حقق أسلوبًا بليغًا حكيمًا، وأبرز هذه الشروط-حسب النص- هي:

١- العناية بأصول وأركان البلاغة، وتقديمها محكمة عميق الدراية بها.

٢- التدقيق في الألفاظ، واختيار الجميل منها.

٣- تنزيل اللفظ على المعنى المقصود، دون أن يغريه اللفظ الجميل، فيقف عنده، فيقع

---

(١٢٠) التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ج: ٢، ص: ٤٣، والهوامل: للتوحيدي أيضًا، ج: ٣، ص: ٢٣١. ويلاحظ أن كلمة "الصناعة" كانت تعني عند العرب قديمًا الفن، ويراد بها كل مهارة أو صنعة. [أميرة مطر: فلسفة الجمال، ص: ٨٥.]

(١٢١) البصائر: التوحيدي، ج: ٣، ص: ٤٢٢.

في سقم لا قيمة فيها.(١٢٢)

٤- ثم الإتقان والروية والتناسب مقياسا للإبداع عند التوحيدي. هذا التناسب يقوم عند "التوحيدي" على الحدس. ويؤكد التوحيدي على التناسق والتناسب الداخلي في العمل الفني، فهو لا يرى الجمال مجرد تناسب موضوعي بين الأعضاء والأجزاء، بل إن دور النفس في تقرير هذا التناسب هو الأساس.(١٢٣)

فالجمال عند التوحيدي هو: "كمال في الأعضاء، وتناسب بين الأجزاء، مقبول عند النفس."(١٢٤)

ويوضح هذا بشكل أوسع في قوله: "ثم إن شأن النفس إذا رأت صورة حسنة، متناسبة الأعضاء في: الهيئات، والمقادير، والألوان، وسائر الأحوال، مقبولة عندها، موافقة لما أعطتها الطبيعة؛ اشتاقت إلى الاتحاد بها، فنزعتها من المادة، واستثبتتها في ذاتها؛ فصارت إياها."(١٢٥)

ويقول في موضع آخر: "الجمال يتجلى في التناسب بين اللفظ الحر الخالي من التكلف، وبين المعنى الحر. ومتى فاته اللفظ الحر لم يظفر بالمعنى الحر؛ لأنه متى نظم معنى حرًّا ولفظا عبدًا، أو معنى عبدًا ولفظا حرًّا؛ فقد جمع بين متنافرين بالجوهر، ومتناقضين بالعنصر."(١٢٦)

فليس-عند أبي حيان- الفن مجَّانيًّا، وليس الجمال الفني فوضويًّا وارتجالًا، بل هو تناسق وتناسب بين المنفعة والحس، وبين العقل والعاطفة، وبين الوظيفة والشكل.(١٢٧)

وفي هذه النصوص وغيرها تظهر الفكرة الصوفية عند "التوحيدي"، حيث الفكر الصوفي الذي انطبع بطابع الخيال الباطني، فلقد كان حدسيا بذاته، وتحدث عن الجمال الإلهي أكثر من حديثه عن الجمال الموضوعي. وهذا ما وجد عند الفارابي وابن سينا، فهما يتحدثان عن جمال الله وجمال المعقولات وهو الجمال الحقيقي لا النسبي.

---

(١٢٢) البهنسي: الفكر الجمالي عند التوحيدي، ص: ٤٨.

(١٢٣) المرجع السابق، ص: ٥٠.

(١٢٤) الهوامل، ص: ٢٥، ٢٤٠.

(١٢٥) المرجع السابق، ص: ٩٧، ٢٤٠.

(١٢٦) البصائر والذخائر، ص: ١٤٠.

(١٢٧) البهنسي: الفكر الجمالي، ص: ٥٢.

فلقد قامت أفكار "التوحيدي" الجمالية على مفهوم الحدس الذي ظهر متأخرا في الغرب.(١٢٨)

وكانت نظرته الجمالية مبنية على نظريته في المعرفة، حيث إن المعرفة لا تقتصر على العقل فقط، بل تعتمد –أيضًا- على الحس الإنساني أداة العقل في الإدراك والمعرفة، فالحسيات هي الأساس الذي ينطلق منه العقل أداة النفس في الوصول إلى العقليات.(١٢٩)

ولما كانت هذه النظرية تنطلق من أسس دينية صوفية، قائمة على الإعلاء من شأن العقل على الحواس؛ لأن العقل إنما يستضيء بالعلة الأولى، (أي: الله "تعالى")؛ لذا يرى العالم فيضًا إلهيًّا صادرا عن موْجِد الموجودات. وغاية الإنسان في هذا العالم هي معرفة الله والوصول إليه-عن طريق معرفة هذا الجزء الذي هو النفس وتحريرها من الجسد.(١٣٠)

والأشياء-في نظر "التوحيدي"- موجودة في العالم على ضربين: ضرب له الوجود الحق، وضرب له الوجود، لكن ليس الوجود الحق.

فالأمور الموجودة بالحق قد أعطت الباقية نسبة من جهة الوجود، وارتجعت منها حقيقة ذلك.(١٣١)

ثم يقول أيضًا: "صفات الله تعالى وأفعاله هي من الحسن في غاية، لا يجوز أن يكون فيها وفي درجتها شيء من المستحسنات؛ لأنها هي سبب حسن كل حسَن، وهي التي تفيض الحسن على غيرها؛ إذ كانت معدنه ومبدأه، وإنما نالت الأشياء كلها الحسن والجمال والبهاء منها وبها."(١٣٢)

وهذه النظرة، الملاحظ عليها أنها قريبة من نظرة "أفلاطون" للجمال؛ حيث وجد "أفلاطون" الجمال الحقيقي في عالم المُثُل، بينما وجد "التوحيدي" الجمال الحقيقي في

---

(١٢٨) "الحدس" لغة: يعني الظن والتخمين، وهو سرعة الانتقال من معلوم إلى مجهول، وقال أيضا: يمكن أن يكون شخص من الناس مؤيد النفس بشدة الصفاء وشدة الاتصال بالمبادئ العقلية التي هي العقول المفارقة إلى أن يشتعل حدسًا، أعني قبولا لإلهام العقل الفعَّال، فترتسم فيه الصور التي في العقل الفعال، إما دفعة، وإما قريبًا من دفعة. وقيل: هو الإدراك للأمور البديهية. [راجع: المعجم الفلسفي: مراد وهبة، ص: ٢٨٤.]

(١٢٩) التوحيدي: المقابسات، مقابسة: ٢٠، ص: ١١٦.

(١٣٠) المقابسات، مقابسة: ٦٨، ص: ٢٨٣، ومقابسة: ٩٥، ص: ٣٨٨.

(١٣١) السابق، مقابسة: ٢، ص: ٦٥.

(١٣٢) الهوامل والشوامل، مسألة: ٨، ص: ٤٣.

صفات الله تعالى وأفعاله، فمنه الجمال كله، وهو مثال الجمال، ويفيض الجمال على الكون كله. وهذا الفارق مصدره التأثير الديني الذي خضع له التوحيدي عن "أفلاطون"

ويعتقد أيضًا: أن الأشياء "إنما استمدت جمالها منه؛ ولذلك فهي دائما تتشوق إلى كماله، وتعشق جماله، وتسعى للتشبه به والاتحاد معه. فهذا العالم السفلي-مع تبدله في كل حال، واستحالته في كل طرف- متقبل لذلك العالم العلوي؛ شوقًا إلى كماله، وعشقًا لجماله، وطلبًا للتشبه به، وتحققًا بكل ما أمكن من شكله."(١٣٣)

وهذا الموقف شبيه بموقف "أفلوطين" من الجمال الفيضي الإلهي، وشوق النفس وتطلعها إلى جمال العالم الروحي؛ وذلك لكونهما وجهة نظر صوفية بالتغني بجمال العالم الروحاني، والشوق الدائم إلى المبدأ الإلهي المقدس والعلة الأولى.(١٣٤)

ولذا عدَّ العقل وحده الطريق للوصول إلى الجمال المطلق؛ وذلك لأنه خليفة العلة الأولى، ومنها يستمد ضياءه وهو يحكم في الأشياء الروحانية البسيطة الشريفة.(١٣٥)

ويضيف "التوحيدي" قائلا: وإنما الشك والظن والريب في علائق الحس وتوابع الخلقة، ولولا هذه العوارض لما اغبرَّ وجه العقل، ولا علاه شحوب، ولَبقي على نضرته وجماله وحسنه وبهجته.(١٣٦)

فالجمال –إذن- عند التوحيدي مصدره العقل، وأي خطأ أو توهم في معرفة هذا المجال يكون مصدره تدخل الحس في الحكم.

وهنا يلاحظ تأثير (التوحيدي) بأفلاطون من اليونان، وابن مسكويه من الأخلاقيين المسلمين، والذي عاصر التوحيدي، ونقل التوحيدي منه كثيرا من آرائه، ومن ذلك: نسبة الخطأ في الأحكام إلى الحواس دون العقل؛ حيث يشارك الإنسان في الإدراك بالحواس البهائم، أما الإدراك العقلي فيختص به الإنسان(١٣٧).

ولذا فقد نادى بضرورة وضع كل من العقل والحس كل في موضعه المناسب؛ فقال:

---

(١٣٣) المقابسات، المقابسة: ٢، ص: ٦٥، وبهنسي:الفكر الجمالي، ص: ٥.

(١٣٤) راجع للمزيد: أميرة مطر: فلسفة الجمال، ص: ٧٩- ٩٠.

(١٣٥) المقابسات، مقابسة: ٩٥، ص: ٣٨٨، مقابسة: ١٠٦، ص: ٤٦٧.

(١٣٦) الإمتاع، ج: ٢، ص: ١٩١.

(١٣٧) انظر: ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي (مسكويه) المتوفى سنة ١٤٢١هـ، منشورات دار الحياة-بيروت-لبنان، مكتبة صبيح ١٩٥٩.

"ولو وقف لوضع كل شيء موضعه، ونسبه إلى شكله، ولم يرفع الوضيع محل الرفيع، ولم يضع الرفيع في موضع الوضيع."(١٣٨)

ولذا، فإنا نجده يقول في الإمتاع –أيضًا، في موضع آخر: "وأما الصواب والخطأ فأمران عارضان للأقوال والأفعال والآراء، وليسا بخُلُقيْن محضين، ولكنهما مَوْكولان إلى نور العقل، فما أشرف عليه العقل بنوره؛ فهو صواب. وما أفل عنه العقل بنوره؛ فهو خطأ."(١٣٩)

وإذا كان "التوحيدي" يرى أن الجمال المطلق يتوصل إليه بالعقل؛ فإن هناك نوعًا من الجمال، وهو "الجمال المادي" الذي يدركه الإنسان عن طريق الحواس، وهو عكس الأول تماما، فهو نسبي خاضع للتطور الاجتماعي في الطبع الإنساني والعادة، ويتغير بتغير الأحوال والأسباب والزمان والمكان.

يقول في الهوامل: " ما كان قبيحا في وقت دون وقت؛ لا يجوز أن ينسب إلى العقل المجرد، وإلى أحكامه الأولية الأزلية، بل لا يقال فيه: إنه قبيح، ولا حسن على الإطلاق، وإنما ينسب إلى الطباع والعادات، ثم يقال: قبيح بحسب كيت وكيت، وحسن لكذا ولكذا، مقيد غير مطلق، ولا منسوب إلى العقل المجرد. وأما الأمور التي تستقبح مرة وتستحسن أخرى، وتتأبى تارة وتتقبل ثانية؛ فإنما لها أسباب أُخَر غير العقل المجرد.... والأمور غير الأبدية كلها-أبدًا- معرضة للتغير، بل لا يجوز أن تبقى لازمة بحال واحدة، للزوم الحركة إياها...."(١٤٠)

ولذا، يقدم تعريفًا للجمال المادي، نقلا عن "مسكويه" (وهو من معاصريه): "إن الحُسْن هو اعتدال ما، ومناسبة ما صحيحة، بين أمزجة وأعضاء في: الهيئة، والشكل، واللون، وغيرها من الأحوال التي مجموعها كلها هو الحسن."(١٤١)

ثم يخاطب "التوحيدي" الإنسان بقوله: "إذا سمي بك العز إلى علياء التوحيد، فتَقَدَّسْ- قبل ذلك- عن كل ما له رسم في الكون، وأثر في الحسن، وبيان في العيان..... شوقًا إلى

---

(١٣٨) المصدر السابق.

(١٣٩) الإمتاع، ج: ١، ص: ١١٣.

(١٤٠) الهوامل والشوامل، مسألة: ١٤٧، ص: ٣٢٠، ٣١٧.

(١٤١) الهوامل، مسألة: ٥٢، ص: ١٤٠.

كماله، وعشقًا إلى جماله، وطلبًا للتشبه به، وتحققًا لكل ما أمكن من شكله."

ويفسر "البهنسي" هذه العبارة بأن "التوحيدي" يربط بين الجمال المادي والجمال المثالي ضمن نظرية "الأخلاق"، وهو –إذن- يفسر التذوق الجمالي على أساس الطبيعة والذات، فهو في مردود الجمال يعتمد المرجعية العقلية النفعية، فيربط بين الجمال والخير، وبين القبح والشر، ولكنه-مع ذلك- كان ينادي بأولوية الجمال المطلق، ثم لا يتردد في تأكيد دور المنفعة واللذة في التمتع بالجمال. وعندما يتحدث عن العشق فإنه يربطه بالجمال، ولهذا فإنه يجعل الجمال الإلهي في أعلى مستويات العشق الإلهي، ويرى الجمال الطبيعي من خلال الذات أو النفس، كما يرى جمال الآخرين من خلال الأخلاق، ويرى الجمال الفني من خلال التناسب، ويرى جمال الأدب من خلال النحو، وليس من خلال المنطق.(١٤٢)

ثم يربط التوحيدي بين مفهوم "الجميل" ومفهوم "النافع" الذي يؤدي غاية خيِّرة تفيد الإنسان في علاقاته مع الواقع، حيث إدراك الجمال المادي إدراك نسبي، وهذه النسبية نابعة مما يقدمه الشيء من خير أو شر للإنسان، فالجمال والقبح لا يطلقان على أي شيء إلا بحسب ما يضاف إليه ذلك الشيء، فكل شيء يمكن أن يكون خيرا أو شرا، فإذا أدى غاية خيرة فهو خير، وإذا أدى غاية شريرة فهو قبيح.(١٤٣)

يقول في الإمتاع: مناشئ الحسن والقبح كثيرة، منها طبيعي، ومنها العادة، ومنها بالشرع، ومنها بالعقل، ومنها بالشهوة؛ فالكِبْر معيب بالنظر الأول الطبيعي لكنه حسَن في موضعه بالعلة الداعية إليه، والحال الموجبة له.(١٤٤)

فالعقل –عنده- لا يَستحسِن ولا يَستقبِح شيئًا من الأشياء إلا بقرائن وشرائط، فأما هذا الفعل بعينه وحده فلا يتأباه ولا يتقبله. يقول: "وكذلك كل شيء كان صالحًا للشيء ولضده؛ فليس يطلق عليه أنه واحد منها، بل الأولى أن يقال: إنه يصلح لها جميعًا، كالآلات التي يصلح بها ويفسد، فإن الآلات لا توصف بأنه مُصلِحة ولا مُفْسدة، ولا

---

(١٤٢) بهنسي: الفكر الجمالي، ص: ١٣٨.

(١٤٣) حسين الصديق: فلسفة الجمال، ص: ٩٩.

(١٤٤) الإمتاع، ج: ١، ص: ١١٢.